الوحي والنبوة بين الفيدية والبرهمية والهندوسية

أ.د. محمد عثمان الخشت

***تمهيد:**

تشترك كل الديانات الكبرى في تمركزها حول كتاب مقدس، وهذا الكتاب هو الوحي الإلهى Revelation فى شكله المقروء أو المسموع في المراحل الشفهية لبعض الكتب المقدسة.

ورغم هذه السمة المشتركة توجد اختلافات بين الأديان في طبيعة الوحي ووسائله، كما توجد أشكال متنوعة للوحي، منها أسلوب الوحى فى التقليد اليهودى – المسيحى– الإسلامى، وهو يعتبر بالنسبة إلينا أكثر فهما وإدراكا: إله شخصى يتصل بأشخاص يختارهم ليكونوا الناطقين بكلامه.

ومنها أسلوب الوحي الرئيسي في الفيدية والبرهمانية والهندوسية. وهو نمط من الوحي يثير كثيرا من الإشكاليات لأنه ليس على هيئة مرسل ومستقبل ووسيط ؛ إذ لا يمكن للبعض أن يستوعبوا أن يوحي اللاشخصي (البراهمان) إلى الشخصي (الإنسان)، ومن الصعب على العقل الإنساني عندهم أن يتقبل تحول المعاني غير المحددة واللاشخصية الآتية من الحقيقة المجردة اللاشخصية القصوى إلى كلمات ومفردات لغوية شخصية متعينة.

ولذا كان هذا البحث الذي يحاول الكشف عن طبيعة ذلك النمط في ضوء منهج تحليلي للنصوص، ولاتعنى هذه العودة إلى النصوص الوقوف بالضرورة عند حدود الشرح النصى ، لأن الشرح النصى لايمثل فى هذا البحث سوى خطوة واحدة تبدو كمقدمة موضوعية للصعود نحو التأويل الفلسفى للنص باعتباره يشكل بنية استدلالية وإشكالية متشابكة العناصر ، ويأتى ضمن نسق ديني محدد اكتسب داخله دلالته الحقيقية ، ولكن هذه الدلالة لايمكن فهمها دون وضع النسق الديني فى سياق التطور العام للأديان الهندية وتطورها.

***طبيعة الوحي في التقليد الفيدي البرهمي الهندوسي:**

إذا بدأنا بالفيدية نجد أن الفيدا تعتبر فى الديانة الفيدية كتابا مقدسا موحى به، ورغم أن هناك كتبا دينية أسبق منها في التاريخ العالمي، لكنها تعد مع كتاب الموتى المصري والبرديات الفرعونية من أقدم الكتب المقدسة التي وصلت إلى أيدينا، خاصة بعد أن ثبت لدينا أن النسخ الخطي يقتضى قبله فترات طويلة من عمليات الرواية الشفهية. و أسفار الفيدا في أصلها كثيرة، ولا توجد معلومات دقيقة عن عدد أسفارها فى الماضى، غير أن من المؤكد أن عددها كان كبيرا، ولم يصل إلينا منها سوى أربعة فقط، وهى:

(١) ريج فيدا (٢) ساما فيدا (٣) ياجورا فيدا (٤) اتهارفا فيدا

والفيدا وحي، ولكنه ليس على هيئة مرسل ومستقبل ووسيط مثل الوحي في أغلب الكتب المقدسة في الديانات السماوية الإبراهيمية، وإنما على شكل تلقي واستقبال روحي للحقيقة الكونية من الحكماء الملهمين. ومن سمات هذا الوحي التي تميزه عن ألوان الوحي الأخرى أنه "وحي غير شخصاني"؛ بمعنى أنه يأتي من كينونة لا تتسم بأية سمات شخصية؛ لأن الحقيقة الجوهرية العليا، وهي براهمان، ليست شخصية محددة؛ إن اللاتمايز صفة لبراهمان الإله الأعلى المحايد الذى ليس له صفات إيجابية أو سلبية، فهو غير متعين، ولا تقابله أية شخصية عينية؛ ومن ثم فهو لا يمكن أن يتصوره إدراك، ولا يمكن صياغة فكرة أو رسم

ذهني أو خيالي لقالب محدد له بواسطة المخيال أوالحس أو العقل أو الحدس، ومن ثم لا يمكن التعبير عنه بلغة بشرية.

وتوجد هنا إشكالية حقيقية عند البعض؛ إذ لا يمكن أن يستوعبوا أن يوحي اللاشخصي (البراهمان) إلى الشخصي (الإنسان)، ومن الصعب على العقل الإنساني عندهم أن يتقبل تحول المعاني غير المحددة واللاشخصية الآتية من الحقيقة المجردة اللاشخصية القصوى إلى كلمات ومفردات لغوية شخصية متعينة؟

ويمكن القول إن النتيجة التى يمكن استخلاصها فى هذا السياق أن طبيعة هذا النوع من الوحى فى الديانة الفيدية مختلفة عن سائر الديانات ؛ حيث إن المصدر الإلهى لهذا الوحى هو براهمان اللاشخصى؛ إنه الحقيقة الأساسية لجوهر الكون التى أصغى إليها الحكماء ثم دونوها فى الفيدا، فبراهمان إله ليس له نفس مدلول الإله فى الديانات الكبرى: اليهودية، المسيحية، الإسلام، فهو غير مميز، ومحايد، أي لا يمكن وصفه بصفات إيجابية أو سلبية، وليس له مفهوم محدد. ومن ثم فإنه لا شخصى. وهنا تظهر الصعوبة كما قلنا سابقا: كيف يمكن أن يظهر المحايد واللاشخصى وغير المتعين فى كلام له معاني محددة ذات طابع شخصى؟! أو بعبارة أخرى: كيف يظهر اللامتناهي اللامحدود في المتناهي المحدود؟

وقد استمر الوحي وفق هذا الأسلوب في البرهمانية، والهندوسية. لكن من الملاحظ أيضا أن هناك نوعا آخر من الوحي في التقليد الهندي بالمعنى الموجود في التقليد الإبراهيمي: اليهودي، المسيحي، الإسلامي. أي الوحي الذي هو عبارة عن استقبال الرسول لرسالة سماوية من الإله عن طريق وسيط أو وسطاء.

للنبوة معنى آخر:

ليس صحيحا ما ذهب إليه الشهرستاني فى كتابه (الملل والنحل)[1] من أن البراهمة ينفون النبوات أصلا ورأسا، والغريب أن كل الكتاب العرب المعاصرين يتابعونه فيما يقول دون أى تحقق أو تثبت.

إن ما أورده الشهرستانى، نسبة إلى البراهمة، خطأ واضح لكل من قرأ كتبهم واطلع على نصوصهم المقدسة، فالديانة البراهمانية التى يؤمنون بها لا تنكر النبوة، لأن جوهر النبوة هو نقل الرسالة، لكنها تعطي لها اسما وطبيعة مختلفة؛ والأدلة على ذلك هى:

أولاً: لا تنكر البراهمانية سلطة الكتب المقدسة السابقة فى الديانة الفيدية، أعنى سلطة الفيدا، وإن كانوا يعتبرونها عهدا قديما. والفيدا كما رأينا سابقا لا تنكر النبوة، بمعنى أنها لا تنكر وجود اتصال من نوع معين بين إنسان مصطفى وبين الحقيقة العليا للوجود، والفيدا نفسها فى اعتقاد الفيديين، والبراهمة والهندوس، هى تعبير عن الآلهة وكلماتهم وأفعالهم وخصائصهم. أى نعم ثمة اختلافات بين اتباع تلك الديانات الثلاث أشرنا إليه مرارا في كتاب "مقارنة الأديان: الفيدية والبرهمانية والهندوسية"، لكن ثمة تسليم بينهم بتعبير الفيدا عن صوت الألوهية

ثانياً: إذا رجعنا للأوبانيشاد، وهو النص المعبر عن حقيقة المعتقدات البراهمانية، نجد مقاطع كثيرة تدل على وجود اتصال فى هيئة حوار بين إنسان ما وأحد الآلهة. من ذلك ما جاء فى "أوبانيشاد كاتا" التى من معالمها الرئيسية ذلك الحوار الذى دار بين ناسيكتاس وياما إله عالم الأرواح الراحلة فيما يتعلق بمسألة الخلود. وفى هذا الحوار يختار ناسيكتاس المعرفة الحق، ويفضلها على الخيرات الأرضية، كما يفضل نظرية تفوق الخير على اللذة، والاعتقاد أن الحقيقة لا يمكن معرفتها من خلال الحواس أو العقل أو بالعلم الكثير، بل بالبصيرة الحدسية أو الحقيقة المباشرة، أو العرفان الباطنى، وعقيدة الجسد- كمركبة للروح. ويكشف هذا الحوار عن عدم جدوى المعرفة العقلية الاستدلالية للوصول إلى الحقيقة العليا. وهذا ما يؤكد أن الحجج التى أوردها الشهرستانى على لسان من اعتقد أنه زعيم البراهمة، من المستبعد أن تكون معبرة عن رأى البراهمانية؛ لأنها حجج تجعل العقل هو المحك الأساسى للتمييز بين الحق والباطل، والخير والشر، ومعرفة الحقيقة العليا، بينما تؤكد "أوبانيشاد كاتا" على

أن معرفة الحقيقة العليا لا يتم بالذكاء العقلى، فتقول: عندما تتوقف الحواس (الخمس) وعندما تتوقف معرفة العقل ولا يتحرك الذكاء- ذلك هو الطريق الأسمى".

ثالثا: توجد إشارات تقطع بأن الإله الأكبر يتكلم ويعطى الحقائق للآخرين، فمثلا براجاباتي الذى يعد فى الأوبانيشاد إلها أكبر توجد أقواله وكلماته فى الأبانيشاد حسبما يؤمن البراهمة. من ذلك ما جاء كثيرا فى "أوبانيشاد شاندوجيا" من أقوال يأتي عقبها مباشرة تارة: "هكذا تكلم براجاباتى"، وتارة: "هكذا تكلم براجاباتى، نعم هكذا تكلم". ولنستمع إلى نماذج من أقواله وردت فى هذه الأوبانيشاد، يقول: (الروح المتحررة من الشر، التى لا عمر لها، التى لاتموت، ولاتحزن، ولاتجوع، ولاتعطش، التى ترغب فى الحقيقة وتدركها- هذه الروح، يجب أن نبحث عنها من - سيد أن يفهمها. إن من يكتشف الروح ولفهمها يحصل على كل العوالم والرغبات. هكذا تكلم براجاباتي"..، وفي نص آخر يقول: "إن من يجد الروح ويفهمها يحصل على كل الرغبات والعوالم. هكذا تكلم براجاباتى، نعم، هكذا تكلم".

وجاء كذلك نص يبين بحسم أن مفهوم الرسالة والنبوة حاضر فى البراهمانية حضورا راسخا؛ تقول أوبانيشاد شاندوجيا: "هذا ما أخبره براهسباتى إلى براجاباتى، وبراجاباتى إلى مانو، ومانو إلى الكائنات البشرية: إن من يتعلم الفيدا من معلم، يعفى من خدمة معلمه بعد وقت ما، ومن يركز كل حواسه على الروح، ومن لا يؤذى الأشياء ويحيا هكذا طوال حياته، يصل إلى عالم براهما ولن يعود إلى هنا مرة أخرى.. نعم لن يعود إلى هنا مرة أخرى".

ويكشف هذا النص عن وجود للوحي بالمعنى الموجود في التقليد الإبراهيمي: اليهودي، المسيحي، الإسلامي. فالوحي في هذا النص ليس إصغاء، ولكن استقبال الرسول لرسالة سماوية من الإله عن طريق وسيط أو وسطاء.

رابعا: إن البراهمة أنفسهم يكتسبون مكانتهم المقدسة فى الهند من كونهم ولدوا- فيما يزعمون- من أصل إلهى، من براهمان(٢). ولذلك فهم الكهنة الذين يعبرون عن الحقيقة الإلهية، ويطلبون من سائر الطبقات أن تتبعهم. لكن ينسب الشهرستانى إليهم

القول بإبطال اتباع الإنسان لغيره، وهذا مناف للصواب، فهم الذين تقوم امتيازاتهم كلها على ضرورة اتباع غيرهم لهم، أى أنهم يؤكدون مبدأ ضرورة التبعية الذى هو مبدأ من مبادئ النبوة، إذ أن النبوة تقوم على الاتباع.

وهذا إن دل على شئ فإنما يدل على أن ما أورده الشهرستانى ليس معبرا عن البراهمة ولا عن البراهمانية.

والمرجح أن الرأى الذى أورده الشهرستاني، إنما هو رأى يعبر عن شخص أو فرقة هندية تنكر النبوة، ولا يعبر عن الديانة البراهمانية. والمحتمل أن هذا الرأى إنما هو خلاصة مناظرة دارت بين أحد الهنود ممن لا يؤمنون بالنبوة وبين أحد المسلمين، والمعلومات التي جاء بها الشهرستانى يكشف سياقها عن حوار جدلى قام بين شخصين، وهى ليست موجودة فى أى نص من النصوص المعتمدة فى الديانة البراهمانية.

وفضلا عن هذا فإن المعلومات الأخرى التى يوردها الشهرستانى عن البراهمة هى معلومات قليلة جدا على الرغم من أن الشهرستانى حجة فى علم الفرق والأديان. لكن هذا لا يقلل من أهميته، لأنه كان متمكنا فى عرضه لأديان أخرى وفرق ونحل مختلفة. وقد تكون مصادر المعلومات التى بين يديه عن البراهمانية شحيحة ومحدودة ومن ثم حدث الالتباس.

***الكتب المقدسة فى الفيدية:**

- تاريخ التأليف :

كلمة الفيدا Vedas كلمة سنسكريتية تعنى المعرفة أو الحكمة، وكتب الفيدا هى كتب مقدسة جاءت من الفترات الأولى من التاريخ الآرى الهندى. ولا يمكن الجزم علمياً بتاريخ تأليفها. لكن بعض الباحثين الهنود والمتحمسين يرجعونها إلى الفترة الزمنية بين سنة ٦٠٠٠ وسنة ١٠٠٠ ق. م [٣] ، بينما يرجعها آخرون إلى العصر المسمى بعصر الفيدا بين سنة ١٥٠٠ وسنة ٦٠٠ ق.م. وهو عصر محاط بالغموض. ويرجح تشارلز إليوت أن جمع الفيدا وترتيبها تم غالباً بين سنة ١٠٠٠ وسنة ٥٠٠ ق.م [٤].

ويذهب وليم جونس Wiliam Jones إلى أن ثلاثة أسفار من الفيدا، هى الريج فيدا، والياجورا فيدا، والساما فيدا، هى أقدم أسفار الفيدا فى تاريخ تأليفها، وأن أقدمها هو الريج فيدا الذى يرجع تاريخ تأليفه إلى القرن العاشر قبل الميلاد، وأن السفر الرابع، أتهارفا فيدا، هو أحدثها جميعاً .

ولا يذكر كتاب "قوانين مانوا" حينما يتحدث عن أسفار الفيدا إلا الأسفار الثلاثة الأولى، بينما لا يذكر السفر الرابع إلا مرة واحدة ولا يشير إليه فى هذه المرة باعتباره جزءاً من الفيدا؛ لأنه لا يضيف إليه كلمة "فيدا"؛ مما يمكن أن يؤدى إلى الاستنتاج بأنه لم يكن فى الأصل من أسفار الفيدا المقدسة، وأنه أُقحم عليها فيما بعد، ، وأنه أحدث منها من حيث تاريخ التأليف. لكن يذهب كولبروك إلى أن قسما كبيرا من الاتهارفا فيدا يرجع تاريخه إلى العصر نفسه الذى ألفت فيه الأسفار الأولى(٥).

ويرجع فيلسيان شالى أن السفر الأقدم عهداً، أى الريج فيدا، قد أُلف ما بين ١٥٠٠ و ١٠٠٠ قبل الميلاد، لكن أقدم الأناشيد تعود فيما يظن إلى النصف الأول من الألف الثانى قبل الميلاد (٦).

وأضعف الآراء حول تاريخ تأليف كتب الفيدا هو ذلك الذى يقول إن "كلمة Veda تشير إلى الكتب القديمة التى يرجع تاريخها إلى ٨٠٠ – ٥٠٠ ق.م"(٧).

والرأى الراجح أنه لابد من التمييز بين فترة تأليف الفيدا وفترة جمعها وتدوينها؛ حيث إنها ظلت لأجيال متوالية تنُقل شفاهية، يقول الزعيم الهندى جواهر لال نهرو فى إحدى رسائله عن الهند القديمة: " لعل هذه الكتب لم تدون فى أول الأمر، وإنما حفظت عن ظهر قلب، وبقيت فى صدور الحفاظ من حكماء تلك العصور يتناقلونها مشافهة جيلاً بعد جيل . وبعد انتشار نظام الكتابة كتبت الفيدا الأربعة باللغة السنسكريتية، وسمى المجموع "سمهيتا" أى الديوان المجموع "(٨) .

فثمة فترة طويلة كانت تنتقل فيها الفيدا شفاهة، وتبلغ هذه الفترة قروناً عديدة، خاصة أن نصوص الفيدا تحمل تعبير : " إنه سمع" بدلاً من : إنه كتب". ولذا يوجد اتجاه يقول إن

الفيدا هى المعرفة التى تحصل عن طريق السمع لا عن طريق البصر؛ فقد كانت التلاوة للنصوص تتم من الذاكرة فى الأصل، وقد كان هذا إجراء دينياً . ولم تسجل الفيدا على الورق حتى مضى وقت طويل بعد أن صارت الكتابة واسعة الانتشار فى الهند .

ومن هنا أشار بعض النقاد إلى أن هذا الاعتماد الطويل على الرواية الشفاهية يجعل من العبث الادعاء بأن الفيدا، التى كان من المفروض أنها انتقلت إلى الإنسان من الإله، قد بقيت بدون تحريف وتعديل وحذف وزيادة منذ عهد موغل فى القدم، خاصة وأن الفكرة التى يسلم كل رواة القصص –كما يقول أرسطو – هى أن المغالاة قد تجعل الرواية أكثر إثارة(٩). فضلاً عن عدم معرفة الرواة بقواعد التوثيق والنقد التاريخيين (١٠) ولعل هذا التعديل والتغيير هو الذى يفسر لنا لماذا توجد تضاربات كثيرة من نصوص الفيدا.

ويمكن القول – إذا تأكد لنا ضرورة التمييز بين فترة التأليف الشفاهى وفترة النسخ والتدوين – إن تاريخ الشفاهى يرجع إلى حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، بينما التدوين والكتابة ترجع إلى "ما بين القرن الخامس عشر والقرن الخامس عشر قبل الميلاد"(١١) ، وربما يكون القرنان الثالث عشر والثانى عشر قبل الميلاد هما اللذين تم فيهما النسخ لأول مرة باللغة السنسكريتية، وهى أقدم مجموعة اللغات التى اشتقت منها اللغة الإنجليزية ذاتها. ولكن اللغة السنسكريتية التى تُدرس فى عصرنا لم تكن لغة قدماء الآريين الذين غزو الهند. وفى وفودهم على الهند فى مجموعات أو قبائل ، من المحتمل أن هؤلاء الغزاة كانوا يتحدثون بلهجات مختلفة وربما لم تكن السنسكريتية فى الأصل لغة وطنية على الإطلاق. والكلمة في حد ذاتها تنتقل فكرة شئ مستبقى لأغراض خاصة وقد تكون أغراضا مقدسة. وكما أن الهيروغليفية تعنى " الكتابة المقدسة " فكذلك السنسكريتية تنعنى "الكلام المقدس". وتأليف الفيدا بالسنسكريتية هو دلالة أخرى على قدمها، وهى دلالة أيضاً على التقدير الذى كانت تتمتع به؛ فاللغة السنسكريتية المقدسة كانت تستخدم غالباً لما يعد مقدساً وجديراً بالحفاظ عليه.

وهكذا نجد أن مجموعة الفيدا تعتبر أقدم كتاب دينى وصل إلينا من تاريخ الإنسانية، خاصة بعد أن ثبت لدينا أن النسخ الخطى يقتضى قبله حقبة طويلة من النقل الشفهى.

- **عدد أسفار الفيدا وأقسامها** :

كانت أسفار الفيدا فى أصلها كثيرة ، ولا توجد معلومات دقيقة عن عدد أسفارها فى الماضى، غير أن من المؤكد أن عددها كان كبيراً، ولم يصل إلينا منها سوى أربعة فقط، وهى: ريح فيدا، ساما فيدا، ياجورا فيدا، اتهارفا فيدا .

- **ريج – فيدا Rig - Veda** :

أقدم كتاب مقدس فى تاريخ الإنسانية وصل إلينا، وهو أقدم الكتب الأربعة المقدسة للهند القديمة، وصل إلينا عن السنسكريتية القديمة ومعناها "الفيدا النارية"، ويبدو من ترانيم الفيدا ذات الشاعرية المتقنة وكأنها تعود إلى القرن الخامس عشر قبل الميلاد، ويقال إنها ترجع إلى القرن الثلاثين قبل الميلاد، وهذا رأى ضعيف، وليس التاريخ الأول إلا تاريخاً تقريبياً ترجيحياً.

والأغلب أنها لم تؤلف فى عصر واحد؛ بل فى عدة عصور. ويتضح هذا بجلاء من أحد أحزائها المسمى بـ" سامهيتها" ؛ حيث يظهر فيه عقيدة التعدد فى عبادة الآلهة ، ثم عقيدة الترجيح والإيمان بإله واحد دون التأكيد بأنه الإله الأوحد Henotheism ، ثم عقيدة التوحيد Monotheism . الأمر الذى يؤكد أن عدة أشخاص فى عصور متغايرة قد أسهموا فى تأليف ريج فيدا .

وتتكون ريج فدا من ١١٠٧ ترنيمة أو أنشودة ، وهى مقسمة إلى عشرة أسفار.

وتؤلف عقيدة تعدد الآلهة المرحلة الأولى للاهوت الفيدى؛ حيث تظهر آلهة كثيرة ومتنوعة، مثل اندرا، واجنى، وفيشنو، وبراهسباتى، وبراثيفى، وديوس، وسوريا، وأوشاش، وفاتا، وفاك. وقد اختلف علماء الأديان عند شرح نصوص الريج فيدا؛ فقد وصفها البعض بأنها صلوات ساذجة بدائية، وأنها تمثيل ضمنى لصفات الله المتعال، وأنها أغانى الأضاحى يقولها شعب بدائى لدى تلاوة شعاراته الاحتفالية. كما تم اعتبارها نظرة طبيعية للوجود.

ويذهب سرفبالى رادا كرشنا وشارلز مور [١٢] إلى أن الريج فيدا تتحدث عن تعدد الآلهة ، لكن عند عبادة إحداها فإنه يصبح الإله الرئيسى الخالق، الحافظ، القاضى، المدمر. وكانت عملية رفع بعض الآلهة إلى هذا المقام السامى Henotheism تعنى الاعتقاد فى إله واحد دون التأكيد بأنه الإله الوحيد، وهذا يختلف عن عقيدة التوحيد التام Monotheism. إن صفات الخلق والحفاظ عليه أو القضاء عليه لم تكن تنفصل عن بعضها البعض، كما أنها لم تكن تنسب لآلهة مختلفة ، بل لإله واحد يتصف بها ، مثلاً براجباتى وهو إله المخلوقات، وفيشفا كارمان وهو صانع الكون. وتؤيد عقيدة "الريتا" هذه الفكرة. ومع أن التعدد اللانهائى للكون يشير إلى تعدد الآلهة، لكن وحدة الكون تتضمن إليها واحداً.

وإذا كان بعض نصوص الريج فيدا تتضمن بوضوح عقيدة تعدد الآلهة، فإنه يوجد أيضاً نصوص أخرى تكشف عن ميل نحو التوحيد ، وتمثل هذه النصوص مرحلة الانتقال من التعددية الطبيعية إلى التوحيد، ومن ثم إلى الاعتراف بالإله الواحد، هذا الاعتراف الذى يشكل العقيدة الفلسفية الرئيسية للفيدا، والتى ستنتقل بعد ذلك إلى الأوبانيشاد وإلى الفيدانتا.

ومما ساعد على تحقيق التوحيد الروحى فيما بعد منطق تطور الدين الذى جعل الآلهة تندمج فى بعضها البعض، والتمثل التدريجى لفكرة الله. ورغم هذا فإن الوصول إلى التوحيد الإلهى لم يكن هو المرحلة الأخيرة؛ إذ أن التفكير الإنسانى لم يكن ليقنع بإله واحد له سمات إنسانية عظيمة، خاصة إذا كان هذا التفكير يهتم بالبحث عن الحقيقة المطلقة أكثر مما يهتم بالبحث عن السعادة الفردية. ومهما كانت القيمة العاطفية لإله شخصى – فيما يقول سرفبالى رادا كرشنا وشارلز مور [١٣] – فإن الحقيقة تضع أمامنا موقفاً آخر ويتطلب موضوعاً آخر للعبادة .

ولذا فشلت فكرة توحيد إله شخصى فى أن تقنع حكماء الفيدا المتأخرين؛ مما أفسح المجال أمام التوحيد الفلسفى الذى آمن بعقيدة الإله الواحد المجهول واللاشخصى.

- **ياجورا – فيدا** Jajure - Veda :

أحد كتب الفيدا الأربعة ، ومعناه " الفيدا الهوائية " . ويتألف من تعابير قربانية وتعاليم موجزة لأساليب تقديم الأضاحى والقرابين، ويعتبر أحدث عهداً من "ريح فيدا" .

ويستعمل فى الاحتفالات الدينية مع باقى كتب الفيدا . وهذا ما ثبت فعلاً عن طريق النصوص التى تصف هذه الاحتفالات . وهو مجموعتان :

(١) ياجورا فيدا البيضاء ، (٢) ياجورا فيدا السوداء .

- **ساما – فيدا** Sama - Veda :

أحد كتب الفيدا الأربعة ، ومعناه " الفيدا الشمسية " ، ويشتمل على مجموعة من النصوص المعدة للغناء فى عدد من المناسبات .

- **اتهارفا – فيد** Atharva - Veda :

رابع كتب الفيدا فى الترتيب والأهمية وزمن الظهور، فهو أحدثها جميعاً، وهو سفر معرفة الرقى السحرية ذات الطابع الشخصى؛ إذ يشتمل على العديد من الرقى والتعاويذ لأغراض طيبة، وعلى طلاسم سحرية تساعد على الانتصار فى المعركة وما شابه ذلك. كما يحتوى على مقاطع ذات مفاهيم من النمط الفلسفى تذكر بمفاهيم فلاسفة الطبيعة الأيونيين ، ويطلق عليه البعض سفر الفقراء. وثمه اتجاه يرى أن هذا الكتاب لم يكن فى الأصل من الكتب الفيدية، لكنه أُقحم عليها فيما بعد. ومن المحتمل أنه من وضع حكيم هندى يدعى " اتهارفا".

*** الكتب المقدسة فى البراهمانية:**

– **البراهمانا** Brahmana:

مجموعة من النصوص الدينية تكونت فى الفترة بين سنة ١٠٠٠ وسنة ٨٠٠ ق. م[١٤]. وفى رأى آخر بين ٨٠٠ و ٦٠٠ قبل الميلاد [١٥].

وتتضمن البراهمانا طقوس وواجبات العبادة ومغزى كل منها، وهى تساعد الكهنة على أداء الشعائر ، وتشتمل على مراسم الاحتفالات الدينية ومجموعة من الرقى السحرية، وتهتم

بتقديم مبررات ومسوغات التفاصيل الدقيقة لها بواسطة بعض الأساطير أحياناً ، وفقه اللغة أحياناً أخرى .

وتطلق كلمة براهمانا كاسم على هذه النصوص ، كما تطلق كصفة على البراهمي وهو الكائن المتخصص فيها .

وتطلب البراهمانا من رب الأسرة أن يمضى شبابه فى الدرس المعرفى وفى السيطرة على الحواس، ويدفع دينه للمجتمع والأجداد عن طريق الزواج والإنجاب حتى يصل إلى سن الشيخوخة، فإذا وصل إلى هذا السن فعليه أن يترك الحياة الاجتماعية ويلجأ إلى الغابة، ليأخذ مكانه شخص آخر يقوم بما كان يقوم به هو سابقاً أثناء حياته الاجتماعية. ويعيش هذا الشيخ فى الغابة من أجل الرهبنة والتأمل بعيداً عن شواغل الحياة مستعيناً بمجموعة من النصوص الدينية.

ويتضح فى البراهمانا الأهمية الخاصة التى توليها لعلاقة الظواهر والأحداث الأرضية بالأفلاك والكواكب، كما تهتم بالطقوس التى هى بمثابة رد فعل على الصعيد الإنسانى تجاه تدخل الأحداث الكونية. وهذه الطقوس هى مجموعة عمليات سحرية ملزمة للآلهة، وهى قوى طبيعية ، بحيث تخضعها لطلباتها. ومن هذه الطقوس طق من الضرورى القيام به كل يوم من أجل إشراق الشمس وسيرها وفق النظام الكونى الذى يتعين على البراهمان المحافظة عليه[١٦].

ونظراً لأن "البراهمانا " تشكل مرحلة انتقالية من الفيدية إلى البراهمانية، فإنها كرست بعض عقائد الأولى ، ولكنها طورت بعض عناصرها العقائدية الأخرى؛ ولذلك لا نستطيع أن نعتبرها معبرة تمام التعبير عن نقلة كبيرة من الفيدية إلى البراهمانية وإن كانت تمثل مرحلة خروج مستتر وبطئ ، وقد أصبح الإله براجباتى مع البراهمانا، وهو إله فيدى، أصبح سيد الخالقين، وإلها كونياً كبيراً. وتذهب البراهمانا إلى أن براجاباتى كان فى البدء الوحدة الشاملة، الباطنة، وظهوره كان روحياً بحتاً ؛ ولكن الرغبة (كاما) دفعته إلى أن يتجلى ويتكاثر.

ولقد أبدع فى الأول الفيدا، وبعد ذلك خلق المياه بواسطة الكلمة، ثم اخترق المياه، ونشأت بيضة فى صدفة أصبحت الأرض، وبعدئذ خلق الآلهة لتسكن السموات والأشوارز لتعمر الأرض. وفكر براجاباتى : " فى الحقيقة لقد خلقت واحداً متدليا من ذاتى، إنه السنة"، ولهذا يقال : " برجاباتى هو السنة". وبإعطائه ذاته الخاصة (آتمان) للآلهة، خلق شيئاً آخر منه ، هو الأضحية ؛ لأجل هذا يقول البراهمة: "الأضحية هو براجاباتى". وبالإضافة إلى ذلك يتم التأكيد على أن مفاصل الجسد الكونى لبراجاباتى هى الفصول الخمسة من السنة والدعائم الخمس لمذبح النار.

إن هذه المماثلة الثلاثية لبراجاباتى مع الكون، الأزمنة الدورية (فصول السنة)، ومذبح النار، تشكل تجديد النظرية البراهمانية الكبير للأضحية؛ إنها تميز انعطاف المفهوم الذى كان يشكل الطقوسية الفيدية، ويمهد لاكتشافات سوف تتحقق على أيدى حكماء الأوبانيشاد .

وبعد أن أبدع براجاباتى الكائنات الحية، انخلعت مفاصله . وعليه ، فإن براجاباتى هو بالتأكيد السنة ، ومفاصله هى الليل والنهار (أى الصبح والغسق، والقمر والبدر، والقمر الجديد، وبدايات الفصول).ولقد كان غير قادر لأن يعاود صعوده بمفاصله المسترخية؛ فشفته الآلهة بواسطة الأجنيهوترا Agnihotra، وذلك بتثبيت مفاصله. وبعبارة أخرى فإن إعادة التكوين وإعادة تثبيت مفاصل الجسم الكونى لبراجاباتى قد أنجز بالتضحية أى بناء مذبح قربانى. ولذلك فإن كل قربان يقوم به الكهنة يعيد العمل الأول للخلق ، ويضمن استمرارية العالم للعام الجديد. ذلك هو المعنى الأصولى للقربان أو التضحية فى البراهمانا[١٧].

ولقد صارت الآلهة الأساسية الفيدية فى البراهمانا مجهولة أوتابعة للقوى السحرية وخالقة للأضحية. وجاء التقلص الجذرى للآلهة الفيدية لمصلحة براجاباتى.

ثم وسع حكماء الأوبانيشاد هذه العملية ، بيد أنهم قد ذهبوا بعيدا؛ حيث لم يترددوا فى إنقاص قيمة الأضحية .

- الأوبانيشاد Upanishad :

كلمة سنسكريتية مكونة من مقطعين : " upa " بمعنى بالقرب من ، و "ni - Shad" بمعنى يجلس، والمقصود يجلس بالقرب من المعلم [١٨] ، وهى تطلق على مجموعة من المحاورات عددها مائة وثمان وتجمع بين الفلسفة والدين والأسطورة ، وتتضمن المذهب الغامض الذى كان يسره المعلم إلى تلاميذه المقربين منه [١٩] ، ويمكن ترجمتها بـ "الاتصالات السرية".

وقد وضعت فى عصور مختلفة بواسطة مجموعة من الحكماء بين سنة ٨٠٠ وسنة ٥٠٠ ق. م [٢٠] وقيل بين سنة ٦٠٠ وسنة ٣٠٠ ق. م [٢١] ، وتشتمل على متناقضات وسخافات وحكم عميقة ! فمن الممكن أن تجد فيها أسخف ما قاله العقل البشرى، وأن تجد أيضاً أعمق وأحكم ما جادت به الفلسفات المختلفة بعد ذلك!

يقول شوبنهور الفيلسوف الألمانى : " إنك لن تجد فى الدنيا كلها دراسة تفيدك وتعلو بك أكثر مما تفيدك وتعلو بك دراسة أسفار الأوبانيشاد ؛ لقد كانت سلواى فى حياتى ، وستكون سلواى بعد موتى "[٢٢].

ويصفها ول ديورانت فيقول : " لو استثنيت النتف التى خلفها لنا "فتاح حوتب" (المصرى) فى الأخلاق ، كانت أسفار الأوبانيشاد أقدم أثر فلسفى ونفسى موجود لدى البشر؛ ففيها مجهود بذله الإنسان دقيق دءوب، يدهشك بدقته وما اقتضاه من دأب، محاولاً أن يفهم العقل وأن يفهم العالم وما بينهما من علاقة، إن أسفار الأوبنيشاد قديمة قدم هومر ، ولكنها كذلك حديثة حداثة "كانت " .. [٢٣].

وتلزم الإشارة إلى أن وصف الأوبانيشاد بأنه شروح وتفسيرات لتعاليم الفيدا ليس وصفا دقيقاً ؛ فهى ذات طابع خاص ويمكن النظر إليها بوصفها إلى حد ما العهد الجديد بالنسبة

للفيدا العهد القديم؛ حيث إنها الأجزاء الختامية للفيدا وأساس فلسفة الفيدانتا وكما يقول ماكس موللر : " هى منهاج وصل فيه التأمل الإنسانى قمته العليا" (٢٤).

وقد سيطرت الأوبانيشاد على فلسفة وديانة الهند لمدة ثلاثة آلاف سنة تقريباً.

وليست الأوبانيشاد مقصورة على البراهمة ؛ فالمعرفة السامية التى تتضمنها لا تبدو أبدا وكأنها حكر على طبقة أو جنس مميز؛ وأى رجل وأية امرأة من أدنى الطبقات، أو أى إنسان مجهول النسب، يمكنهم معرفتها إذا كانوا أهلا لفهمها دونما نظر إلى النسب أو إلى الطبقة، شأنهم فى ذلك شأن البارهمى أو الأمير. ويرجع بعض المحللين (٢٥) ذلك إلى أن تعاليم وأفكار الأوبانيشاد صدرت عن حكماء يناوئون الامتيازات التى يخص البراهمة أنفسهم بها وأول هذه الامتيازات أنهم وحدهم الذين يستحقون المعرفة السامية. ومع أن الأوبانيشاد كانت سرية فإنها كانت تُباح لأى شخص يمكنه أن يكون أهلاً لفهمها وتلقينها من المعلم بصرف النظر عن وضعه الاجتماعى أو نسبه. فالشرط فى معرفتها إذن هو الأهلية للفهم؛ الأمر الذى يجعلها غير مضنون بها على أى فرد لا ينتمى إلى طبقة البراهمة.

ويوجد مالا يقل عن مائتى أوبانيشاد ، ليس لها كلها درجة الأهمية نفسها؛ حيث تتميز منها مائة وثمانية أوبانيشاد ، ثم تتميز من بين هذا العدد ثلاث عشرة رئيسية هى :

(١) **أوبانيشاد إيشاد** :

تعتبر من حيث الحجم أصغر من باقى الأوبانيشاد الثلاث عشرة، وتشتمل على ثمانى عشرة فقرة ، وتدور حول معتقدات متعددة وسلوكيات الحكمة والتقوى، وتؤكد على الوحدة المتناقضة الموجودة فى العالم المادى المتنوع، وطبيعة آتمان المتناقضة ، وفيما يلى نص هذه الأوبانيشاد : "يحتضن الإله إيشا كل ما يجب أن يكون، كل شئ متحرك فى هذا الكون المتحرك بإمكانك أن تفرح لهذا النبأ: لا تشته ثروة أحد من الناس أبداً . إن العوالم التى تغلفها الظلمات العمياء تسمى عوالم شيطانية! وكل جماعة تنزل إليها تقتل ذاتها . إن الواحد، من دون أن يتحرك ، أسرع من العقل . وقوى الإحساس لا تصله فى سرعتها . إنها تتسارع وراء بعضها البعض، ويبقى الواحد واقفاً. وفيها يضع ماتارسفان الحركة. إنه يتحرك ولا يتحرك . هو قريب وبعيد . إنه ضمن كل هذا وخارج كل هذا.. عندما ننظر إلى الكائنات،

كأننا ننظر إلى الروح (آتمان) ونحن نبتعد عنه هو الذى توجد فيه كل الكائنات ، التى أصبحت الذات المدركة تماماً. إن أين حزن وضياع من يدرك الوحدة ؟! لقد طوق الكل. وهو المشع، اللامادى ، اللامؤذى، اللاجسمى ، النقى، اذلى لا يخترقه الشر! حكيم، ذكى يحيط بكل شئ، موجود بذاته، وقد وزع الأشياء بحكمة وعدل خلال السنين الأبدية. الذين يعبدون الجهل يدخلون مملكة الظلام العمياء، والذين يبتهجون فى حكمتهم يدخلون ظلاماً أشد من ظلام أولئك. البعض يقولون : إنه أعظم من المعرفة ! والبعض يقولون : إنه أعظم من اللامعرفة ! هكذا سمعنا من الحكماء الذين أوضحوه لنا . المعرفة واللامعرفة – إن من يعرف الاثنين معاً، يخطُ باللامعرفة فوق الموت، وبالمعرفة يكسب الخلود. إن الذين يعبدون اللاصيرورة يدخلون مملكة الظلام العمياء ، والذين يعبدون الصيرورة يدخلون ظلاماً أكبر من ظلام أولئك. البعض يقولون : إنه الأصل ! والبعض الآخر يقولون : إنه اللا أصل ! هكذا سمعنا من الحكماء الذين أوضحوه لنا. الصيرورة والفناء ، إن من يعرفهما يخط فوق الموت بالفناء، ويكسب الأبدية بالصيرورة. بإناء ذهبى نغطى وجهه " الحقيقى". وأنت يا بوشاتا تكشف ذاك الذى قانونه هو الحقيقة التى نبتغى رؤيتها . أيها المغذى، الرائى الوحيد، يا حافظ الأشياء ، أيتها الشمس، انشرى ضياءك ! ما أجمل شكل لك ؟ . هو شكلك الذى أراه . ذاك الذى يحيا بعيدا، الشخص البعيد، أنا بذاتى هو . إنى أتوق لأن أتنفس الريح الأبدى عندما يتحول جسدى إلى رماد! يا غابتى، تذكرى ! تذكرى العمل . يا آجنى ، قدنا إلى الأزهار عن طريق جيد . أنت الإله الذى تعرف كل الطرق ! أبعد عنا الخطيئة التى تهاجمنا بطرق ملتوية ! إننا نقدم لك كل عباجة عظيمة "(٢٦).

٢- أوبانيشاد كينا :

تتحدث عن القوة المدبرة للوظائف العقلية والحسية فى الإنسان فتقول : "من يحث العقل عندما يحلق غالباً فى فكره ؟ من يأمر أول تنفس أن يستمر ؟ من يحث عن الكلام الذى يتكلمه الإنسان ؟ العين، الأذن ؟ من هو الإله الذى دبره ؟ الجواب : براهمان، الوسيط الذى يتعذر علينا فهمه، هو الذى يدبر كل شئ " .

وتؤكد على أن معرفة البراهمان غير ممكنة " نحن لا نعرف ولا نفهم كيف يعلمنا . أليست معرفته أبعد من إدراكنا ومن جهلنا ؟ " .

ولكنها تعود وفق أسلوبها الجدلى فتؤكد : " أنه يدرك من قبل الإنسان الذى لا يدركه. والذى يدركه ، لا يدركه . لا يفهمه الذين يقولون إنهم يفهمونه . ويفهمه الذين يقولون إنهم لا يفهمونه. إنه يُدرك ويُعرف من خلال اليقظة الروحية " .

٣- أوبانيشاد كانا :

تناقش قضايا عقائدية متعددة، لعل من أهمها قضية الموت والخلود والمعرفة والخير. وتلح على أن الفضيلة والمعرفة الحقة أفضل من كل الملذات الدنيوية، فتقول: " الفضيلة واللذة تأتيان إلى الإنسان. وإذ يعالجهما ، فإن الحكيم يميز بينهما. والإنسان الحكيم يختار أكثرهما فضيلة أما الجاهل فإنه يختار أكثرهما لذة .. اللذة والفضيلة متباعدتان ! وكذلك الجهل والمعرفة فى اختلاف ... هؤلاء الذين يسكنون وسط الجهل، حكماء الذات ، يعتقدون أنهم عارفون ومتعلمون، يركضون إلى هنا وإلى هناك، ويتجولون وهم واهمون كالأعمى الذى يقوده أعمى " .

وإزاء قضية الموت والخلود تقرر أن الروح الأبدية لا تفنى ، وهذه الروح (آتمان) قائمة فى قلب المخلوقات ، ويراها كل من يتجرد عن إرادة الشر، ويتحرر من أحزانه عندما يشاهد عظمة الروح من خلال نعمة الخالق. فعند التفكير فى هذه الروح لا يحزن الإنسان الحكيم. ولا يحصل الإنسان على الروح بالإرشاد، ولا بالذكاء ، ولا بالعلم الكثير . وإنما يحصل عليها الإنسان على الروح الذى تختاره هى، وتظهر الروح ذاتها لذلك الإنسان. وفى كل الأحوال فإن الإنسان ذا السلوك السئ لا يستطيع رؤيتها ، وكذلك مَنْ لا يكون هادئ النفس ولا يعرف سلام العقل.

وتحدد أوبانيشاد كانا علاقة الروح (آتمان) بالجسد على أساس أن الروح تمتطى مركبة هى الجسد ، والذكاء هو القائد ، والعقل هو اللجام ، أما الحواس فهى بمثابة الخيول التى تجر المركبة ، والموضوعات التى تدركها الحواس تشبه الأشياء التى تمر عليها الخيول.

وتعتبر موضوعات الإحساس أسمى من الإحساس ذاته، لكن العقل أسمى من تلك الموضوعات، والذكاء يفوق العقل، أما الروح فأسمى من الذكاء. والأسمى من الروح هو ذاك الذى لا يظهر ، وهذا الذى لا يظهر يوجد ما هو أسمى منه، إنه الشخص ، ولا يوجد أعظم من هذا الأخير.

ولا يتحرر الإنسان من دائرة الموت إلا بمعرفة الروح، وهذه المعرفة ليست معرفة خارج الإنسان، وإنما داخل نفسه، فالحكيم الذى يبحث عن الخلود يرى الروح وجها لوجه فى داخله . وهذا لا يتم إلا " عندما تتوقف الحواس (الخمس)، وعندما تتوقف معرفة العقل، ولا يتحرك الذكاء – ذلك هو الطريق الأسمى ، هذا هو ما يعتبرونه اليوجا التى هى السيطرة التامة على الحواس. يصبح الإنسان عندئذ غير مشوش. اليوجا هى حقا البداية والنهاية. إننا لا ندركه أبدا بالكلام أو بالعقل أو بالنظر . وكيف يمكن إدراكه إلا بقولنا " هو موجود " ؟ يمكن إدراكه بتفكيرنا " إنه موجود" وبتقبلنا لطبيعته الحقتين (إمكانية فهمه ولا إمكانية فهمه). وعندما ندركه بتفكيرنا " أنه موجود " تبدو عندئذ طبيعته الحقة . عندما تتحرر كل الرغبات التى تسكن قلب الإنسان ، يصبح الفانى خالدا ! عندئذ يصل إلى براهمان ! عندما تقطع كل عقد القلب هنا على الأرض، يصبح الفانى خالدا! هكذا يكون الإرشاد بعيداً " .

٤- أوبانيشاد برانا :

تشتمل على إجابات الحكيم بيبالادا عن أسئلة وجهت إليه ؛ حيث يشرح كيف أن الإله الخالق براجاباتى عندما أراد خلق العالم قام بصنع زوجين أولهما مذكر وهو الحياة تحت اسم برانا ، وثانيهما مؤنث وهى المادة تحت اسم رابى. وقام هذان الزوجان بصنع المخلوقات كلها.

ويشير إلى الروح العليا (آتمان) على أنها الملجأ الذى يتم اللجوء إليه مثلما تلجأ الطيور إلى الشجر لتجد مكاناً للراحة . ويقول بيبالادا : " حقاً هذا الرائى، واللامس ، السامع، والشام ، والذائق ، والمفكر ، والصانع ، أى النفس المدركة ، الشخص — تلجأ إلى الروح العليا التى لا تفنى " . لأن الروح العليا هى الأساس الأسمى سواء للفرد أو للعالم المتنوع .

٥- أوبانيشاد مونداكا :

تعنى كلمة " مونداكا " المهذب، أى الذى يهذب نفسه ويطهرها من الجهل ومن كل ما يتعارض مع حياة التقشف والزهد والعمل الصالح . وتتعرض أوبانيشاد مونداكا بشاعرية لكثير من الموضوعات المنتشرة فى سائر الأوبانيشاد الأخرى، غير أن أهم الموضوعات التى تميزها هى الى تدور حول المعرفة؛ والمعرفة نوعان: معرفة سفلى وهى المطروحة فى الفيدا، ومعرفة عليا وهى معرفة الذى لا يفنى ، أى أصل الوجود الذى يُرى ولا يُمسك، ويوجد فى كل زمان ومكان ، إنه براهمان الذى يتضمن كل شئ .

تقول أوبانيشاد مونداكا عنه : " لا سبيل إلى رؤيته أو الإحاطة به، لا نسل له، ولا لون، بلا عين ولا أذن ، وبلا أيد ولا أقدام ، يتخلل فى كل شئ ، وهو كلى الوجود، إنه الواحد الذى لا يتغير ، الذى ينظر إليه الحكماء باعتباره مصدر الموجودات "[٢٧].

ومعرفة الإنسان له تفوق التضحية، تقول أوبانيشاد مونداكا : " يحطئ من يعتقد أن التضحية والجدارة هما أهم الأشياء. إن من يتمتع بالسماء التى كسبها بأعماله الجيدة سيدخل هذا العالم ثانية، أو عالماً أدنى. من يمارس التقشف والإيمان فى الغابة ، المفكرون المسالمون الذين يعيشون على الصدقات يصلون بدون دوافع عبر باب الشمس، إلى حيث يوجد الشخص الخالد (بدروث) والروح التى لا تفنى (آتمان) " .

٦- أوبانيشاد ماندوكيا :

تُنسب إلى الحكيم ماندوكيا، وتتحدث عن الحالات الأربع التى يمر بها الوعى، وهى ذات علاقة بالمقطع " أوم " الذى يصور مراحل الوعى الأربع، ويرمز هذا المقطع إلى العالم كله، إلى الماضى والحاضر والمستقبل .

تقول أوبانيشاد ماندوكيا : " أوم ! هذا المقطع هو العالم كله . وشرحه بكامله هو : الماضى والحاضر والمستقبل ، كل شئ هو الكلمة أوم . وكل شئ آخر يُقال ثلاث مرات ، ذلك أيضاً هو الكلمة أوم. فى الحقيقة، كل شئ هنا هو براهمان هذه الروح هى براهمان، وهذه الروح لها أربعة أرباع : حالة اليقظة ، حالة المعرفة الخارجية، لها سبعة أطراف وتسعة عشر فما ، وتشمل الكل، ومشتركة بين جميع الناس، هى الربع الأول. حالة الحلم، حالة المعرفة الداخلية، لها سبعة أطراف، وتسعة عشر فما، تشمل كل شئ جميل ومشرق، وهى الربع الثانى. يكون النائم فى نوم عميق عندما لا يرغب فى شئ أو لا يرى حلما. حالة النوم العميقة، ممتدة، كتلة معرفة، تشمل الغبطة، فمها هو الفكر، حالة المعرفة هذه هى الربع الثالث. هذا هو رب الجميع ، الكلى المعرفة. هذا هو الضابط الداخلى، هذا هو نبوع الكل، لأنه بداية ونهاية الكائنات. إنه لا يعرف فى الداخل أو فى الخارج ، ولا يُعرف أو يُعرّف، لا يرى ، لا يمكن التعامل معه ، لا يُمسك ، ليست له علامات مميزة ، لا يُفكر به، لا يمكن تحديده، إنه جوهر التأكيد الذى هو واحد مع الروح، إنه توقف التطور ، هادئ هو ورءوف ، وبدون ثان، هو الرابع. إنه الروح . يجب أن نعرفه . هذه هى الروح بالنسبة لكل أوم وعناصرها . العناصر هى الرابع، والرابع هو العناصر ، الحرف A والحرف U والحرف M . حالة اليقظة العامة لدى الناس، هى الحرف A ، العنصر الأول ؛ إنها أتت من آبتى (الحصول) أو من أدميتفا (كان أولاً) . حالة النوم البهية هى الحرف U ، العنصر الثانى ؛ وقد أتت من أوتكارس (الغبطة) أو من أوبكاياتفا (داخل الوسط). حالة النوم العميقة، حالة المعرفة، هى الحرف M ، العنصر الثالث ؛ وقد أتت من ميتى (المنتصب) أو من آبتى (المنبثق). والرابع بدون عنصر. ولا يمكن التعامل معه . إنه توقف التطور، رءوف، لا ثانى له. من يعرف هذا، يدخل بروحه الروح .. نعم ، من يعرف هذا".

٧- أوبانيشاد تايبترى :

تبحث عن حقيقة الذات ، وتولى اهتمامه خاصا بالجوانب والوظائف المختلفة للشخص الفرد. وتذهب إلى أنه إذا كان من المعتقد أن الذات هى الجسد، فإنها تكون الطعام بصفة جوهريرة ؛ لأن الجسد هو الطعام مهضوماً .

ولكن من المؤكد أن الذات لا يمكن تتحد مع الجسد فحسب ، لأنها شئ يفوق ذلك، فهى حسية ومتحركة ، وإذا لم تكن الذات طعاماً ، فربما كانت الحياة المستمدة من الطعام . ولكن حكماء أوبانيشاد تايبترى أدركوا أنه بينما يفيد ذلك في تمييز المادة الحية من المادة الجامدة ، فهى ليست ذات الشخص المطلقة، ذلك أن الشخص يزيد على كونه طعاماً حياً، فالذات ترى ، وتسمع ، وتحس ، الخ .

ويمضى هذا التأمل ليقول إنه ربما ينبغى النظر إلى الذات من خلال مفاهيم العقل أو الإدراك . بدي أن هذا بدوره بدا غير مناسب، ذلك أن التفكير والفهم يتعلقان على نحو أكثر ملاءمة بالذات منهما بالإدراك .

غير أن هذا الطرح رُفض بدوره باعتباره طرحاً غير مناسب ؛ لأنه لابد أن يكون هناك من يمنح الوجود للتفكير والفهم، وكما تقول أوبانيشاد تايبترى : "مختلفة عن ذلك الذى يتألف من الفهم ، وقائمة فى أغواره هى الذات المباركة "[٢٨].

وتلّح أوبانيشاد تايبترى على مبادئ الأخلاق والفضيلة ، فتقول : " تكلم الصدق. مارس الفضيلة . لا تهمل دراسة الفيدا. يجب أن لا يهمل الإنسان الحقيقة. يجب أن لا يهمل الإنسان الفضيلة . ينبغى أن لا يهمل الإنسان الازدهار. ينبغى أن لا يهمل الإنسان التعلم والتعليم. وينبغى أن لا يهمل الإنسان واجباته نحو الآلهة والآباء . كن كمن تكون أمة إلهة. كن كمن يكون معلمه إلهاً. كن كمن يكون ضيفه إلها. هذه الأعمال التى لا شر فيها يجب أن تُعمل هى لا غيرها . هذه الأعمال نعتبرها جيدة يجب أن نحترمها . هى لا غيرها. يجب أن تقدم مقعدك للبراهميين الذين هم أعلى منك، وذلك لكى تسعدهم . يجب أن تعطى

بإيمان . يجب أن تعطى بكثرة . يجب أن تعطى بتواضع . يجب أن تعطى بخوف. يجب أن تعطى بحنان ... " .

٨- أوبانيشاد ائتاريا :

تتضمن بوضوح مذهب وحدة الوجود، وترى أن كل شئ فى العالم يقوده الذكاء ويقوم عليه ، فالذكاء هو الأساس، وبراهمان هو الذكاء ، هو الواحد ، هو الروح، هو آتمان. هو الذى به يسمع الإنسان ويرى ويشم الروائح، وبه يتكلمن ويميز بين العذب وغير العذب. تقول أوبانيشاد ائتاريا : " هو العقل والقلب، هو الوجدان والوعى وقوة التمييز والذكاء والحكمة والبصيرة والثبات والفكر والتعقل والدافع والذاكرة والتصور والهدف والحياة والرغبة والإرادة. هذه كلها تسميات للذكاء (براجنيانا). هو براهمان ، هو إندرا ، هو براجاباتى ، هو كل هذه الآلهة ؛ هو هذه العناصر : الأرض والريح والفضاء والماء والنور؛ هذه الأشياء وتلك التى تمتزج بالنار كما لو كانت ، أصول جميع الأشياء ، وتلك التى تولد من بيضة أومن رحم أو من فرخ ، الأحصنة والأبقار والفيلة ، والأشخاص ، كل ما يوجد هنا ، إن كان متحركاً أو طائرا أو مستقراً " .

٩- أوبنانشاد شاندوجيا :

تتمتع بشهرة وأهمية كبرى، وتشتمل على كثير من العقائد ، مثل عقيدة البيضة الكونية التى يتم من خلالها تفسير نشأة العالم. تقول أوبنانيشاد شاندوجيا : "فى البدء كان العالم لا وجودا، تطور ، تحول إلى بيضة . وظلت هكذا لفترة سنة. وانشطرت وأصبح أحد الشطرين ذهباً والآخر فضة . الأرض هى الشطر الفضى. والفضاء هو الذهبى . والقشرة الخارجية هى الجبال . والقسم الداخلى هو الغيم والضباب ؛ والعروق هى الأنهار. والسائل فى الداخل هو المحيط. وما وُلد من هذا هو الشمس . وعندما ولدت صعدت إليها هتافات من الكائنات . هكذا تصاعدت الهتافات لدى شروقها . من يعرف هذا يحترم الشمس مثل براهمان – والمهم هو أن تتصاعد إليه الهتافات لكى يبتهد – نعم ابهجوه " .

وتبحث أوبانيشاد شاندوجيا – شأنها شأن سائر الأوبانيشاد – عن الروح المطلقة، غير أنها تطرح هذا البحث على شكل قصة مؤداها أن براجاباتى الذى يمثل قوى الكون الخلّاقة يقوم بتعليم إندرا الذى يمثل الآلهة وفيرو كانا الذى يمثل الشياطين. تقول أوبانيشاد شاندوجيا : " الروح المتحررة من الشر، التى لا عمر لها، التى لا تموت ، ولا تحزن ، ولا تجوع ، ولا تعطش، التى ترغب فى الحقيقة وتدركها . هذه الروح يجب أن يبحث عنها من يريد أن يفهمها. إن من يكتشف الروح ويفهمها يحصل على كل العوالم والرغبات . هكذا تكلم براجاباتى . وقد سمع هذا الآلهة والشياطين . وقالوا : " لنبحث عن هذه الروح التى تحصل لدى اكتشافها على كل العوالم والرغبات " . عندئذ أتى إليه إندرا من قبل الآلهة وفيروكانا من قبل الشياطين . ومثلاً أمام براجاباتى وكل واحد منهما يحمل محروقاته (إشارة إلى رغبة فى التلمذة) " .

ولقد مكث الاثنان اثنتين وثلاثين سنة فى حالة ورع وزهد ، وبعد هذه المدة أجابهما براجاباتى بأن الروح الحقة هى ما يريانه فى انعكاسهما على الماء وفى المرآة. فالصورة المنعكسة هى الروح ، ولقد عاد فيرو كانا إلى الشياطين وأخبرهم أن الروح هى الجسد ، ويلزم جعله سعيداً على الأرض حتى يمكن الحصول على العالمين .

ولكن إندرا قبل أن يرجع إلى الآلهة تأمل فيما حصل عليه من معرفة، ورأى أنه إذا كانت الروح هى الجسد ، فإن الروح تفنى عندما يفنى الجسد، ومن ثم لا يمكن أن تكون هذه الروح هى الروح الخالدة التى يرغب فى معرفتها . وعاد إندرا إلى براجاباتى مرة أخرى ومكث معه اثنتين وثلاثين سنة، وبعدها أخبره براجاباتى عن الروح قائلاً :

" من ينتقل سعيداً فى حلمه – يكون هو الروح " .

ولكن إندرا لا يزال يشعر بعدم الارتياح ، ذلك أنه على الرغم من أن الروح الحالمة ليست معتمدة تمام الاعتماد على الجسد ، فإنها فى بعض الأحيان تغدو بدورها عرضة للألم والمعاناة والدمار. ولذا فإنه يعود ليبحث من جديد عما تكون الروح الحقة، ويمكث مع براجاباتى اثنتين وثلاثين سنة أخرى، وبعدها يخبره براجاباتى عن الروح بقوله : "عندما ينام

المرء نوماً عميقاً ومرتاحاً وهادئا لا يحلم – تلك تكون الروح . ذلك هو الخالد الذى لا يخاف، ذلك براهمان". ويقتنع إندرا بذلك فى البداية ، ولكنه يدرك قبل أن يعود إلى مقر الآلهة أنه على الرغم من أن الروح الغافية ليست عرضة للألم ولا الدمار، فإنها لا يمكن أن تكون الروح الحقة. فيعود إلى براجاباتى ويخبره بأن الروح فى غفوتها لا تعى نفسها، ولا تعرف الأشياء أيضاً، وتتساوى مع حالة الإنسان وهو ميت، وهنا يقرر براجاباتى أن ما قاله إندرا صحيح ، ويطلب منه أن يمكث معه خمس سنوات أخرى . وبعدها يوقفه براجاباتى على الروح الحقة التى تتجاوز كل الأرواح أو النفوس التى تم النظر فيها حتى الآن. حقاً إن هناك النفس العضوية التى يعتقد البعض أنها النفس الوحيدة، وهناك النفس التى هى الذات التى تعيش الأحلام، وهى نفس يعترف بها البعض. وهناك نفس تعايش الإغفاء ، وإلا فإن الإغفاء سيكون هو والموت سواء . ولكن الروح الأسمى تتجاوز تلك الأرواح أو النفوس كلها. إنها روح تجعل تجربة اليقظة وتجربة الحلم وتجربة الاغفاء أموراً ممكنة ، وتلك النفوس أو الأرواح لا تعدو أن تكون أدوات للروح الأسمى التى هى مصدر وجودها ذاته .

والحالة التى يدرك المرء فيها الروح المطلقة التى تمنح الوجود لروح الشخص المستيقظ والحالم والغانى ، يطلق عليها أحياناً – فيما يقول جونكولر – اسم توراياTuriya أو الحالة الرابعة. وعلى العكس من الواقعة الإغفاء، فإن هذه الحالة قوامها الوعى الذاتى والاستنارة[٢٩]. يتحدث براجاباتى إلى إندرا عن هذه الحالة قائلاً :

"ياماجهافانا (السخى) ، إن هذا الجسد فإن ، الموت امتلكه ، وهو القاعدة الأرضية للروح التى لا تموت والتى لا جسد لها . كل متحد يخضع للألم واللذة. حقاً، لا تحرر من اللذة والألم طالما أن الإنسان متحد، وعندما يصبح بدون جسد، لا يخضع لهما . الريح بدون جسد ، الغيوم والبرق والرعد بدون جسد، عندما ترتفع هذه وتأتى من الفضاء البعيد وتصل النور الأعلى ، تبدو كل واحدة منها بشكلها الخاص. وهكذا عندما يشرف (سامبراسادا) الواحد الرصين ، ويبعث من جسده ويصل النور الأعلى ، يبدو بشكله الخاص. إن واحدا كهذا هو الشخص السامى (أوتابوروشا) . هناك يتجول الواحد ضاحكاً ،

ولاعباً، ويتمتع مع الأصدقاء ، ولا يذكر آثار هذا الجسد . إن الروح تخضع للجسد كما يخضع الحيوان للمركبة التى يربط بها .. الآلهة الذين هم فى عالم براهمان يحترمون الروح. وهكذا يمتلكون كل العوالم والرغبات. إن من يحب الروح ويفهمها حصل على كل الرغبات والعوالم. هكذا تكلم براجاباتى ، نعم هكذا تكلم!".

١٠- أوبانيشاد برهادارنياكا :

يعنى اسمها كتاب الغابة العظيم، وهى زمانيا أقدم أوبانيشاد ، وتعد أشهرها جميعاً وأكبرها حجماً .

وتؤكد على أن براهمان مصدر العالم، وتصفه بأوصاف متناقضة ؛ هو قريب وبعيد، وثابت ومتحرك ، وذو شكل وأيضاً لا شكل له وهو إله واحد. ومما يؤكد أن الإله واحد تلك الإجابة الجدلية التى أجاب بها ياجنيافالكيا أكبر حكماء الأوبانيشاد عندما سُئل كم عدد الآلهة؟

– فأجاب : عددهم هو المذكور فى " الترنية للآلهة جميعاً" فهم ثلاثمائة وثلاثة، وهم ثلاث آلاف وثلاثة .

– نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياجنيافالكيا ؟

– عددهم ثلاثة وثلاثون .

– نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه القين يا ياجنيافالكيا ؟

– عددهم ستة .

– نعم، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياجنيافالكيا ؟

– هما اثنان .

– نعم، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياجنيافالكيا ؟

– إله ونصف إله .

– نعم ، ولكن كم عدد الآلهة على وجه اليقين يا ياجنيافالكيا ؟

– إنه إله واحد .

وتفسر أوبانيشاد برهادارانياكا كيف خرج العالم والمخلوقات من الروح على النحو التالي: " في البدء كان هذا العالم هو الروح لوحدها في شكل الشخص. وإذا التفتت حولها لم تجد شيئاً آخر سواها . قال أولاً : " أنا أكون " . وعندئذ وجد اسم " أنا " . وحتى اليوم ، عندما يتكلم شخص يقول أولاً : " هو أنا " . كان الشخص خائفاً . ومن يكن لوحده يخاف . عندئذ فكر هذا الواحد لنفسه : " إذا لا يوجد شئ سواى مما أخاف ؟ " . وهكذا انقضى خوفه. إن الخوف لا ينشأ إلا من وجود شخص آخر . لكنه لم يكن مبتهجاً . ولا يبتهج من يكون لوحده . ورغب في شخص آخر . فأراد أن تنقسم ذاته إلى قسمين. ومن ذلك الحين وجد الزوج والزوجة. إن ما أقوله لكم هو الحقيقة " المرء لوحده نصف" . هكذا يمتلئ الفراغ بزوجة تزوج بها. ومن ذلك الحين نتجت الكائنات البشرية. هي حولت نفسها إلى أشكال الحيوانات المختلفة ، وفعل مثلها ... هكذا خلق الكل . " أنا حقاً هذه الخليقة لأننى بعثتها من نفسي" لقد عرف هذا . ومن ذلك الحين وجدت الخليقة . كان العالم عندئذ غير مميز. فأصبح مميزاً بالاسم وبالشكل . وكما يقول المثل : "له اسم كذا، وشكل كذا" . دخل إلى العالم واختبأ فيه كما يختبئ السيف فى غمده أو النار فى الوعاء. لا أحد يراه ، وإذا رؤى فيكون ناقصاً. عندما يتنفس يصبح نفسا بالاسم؛ وعندما تكلم يصبح صوتاً وعندما يرى يصبح عينا وعندما يسمع يصبح أذنا وعندما فكر يصبح عقلاً، وهذه هى مجرد أسماء لأعماله. من يعبد واحدة من هذه – لا يعرف شيئاً لأنه يكون ناقصاً بواحدة أو بأخرى . يلزم أن يعبد الإنسان بفكره وبإيمانه روحاً واحدة، لأن كل هذه الأعمال تصبح واحدة، وهذا الشئ وذاته، هذه الروح ، هى أثر لهذا كله، لأنه يعرف الكل بها . إن من يعرف هذا يجد الشهرة والمجد ... " .

والسبيل إلى معرفة براهما –كما يقول ياجنيافالكيا أكبر حكماء الأوبانيشاد – هو الزهد والتقشف " من يتجاوز الجوع والعطش والحزن والوهم والشخوخة والموت – البراهمانيون الذين يعرفون الروح يتغلبون على رغبتهم فى الأبناء والثورة والدنيويات، ويحيون حياة البسطاء المستعطفين. الرغبة فى الأولاد هى الرغبة فى الثروة ، والرغبة في الثروة هى الرغبة فى

الدنيويات، وكلها رغبات. إذن ليشمئز البراهمانى من العلم والرغبة لكى يحيا كطفل. وعندما يشمئز من العلم والرغبة ، يصبح متقشفاً . وعندما يشمئز من حالة التقشف واللاتقشف، يصبح براهمانياً".

وتركز أوبانيشاد برها دارانياكا على ثلاث فضائل أخلاقية هى : ضبط النفس، والعطاء ، والرحمة .

١١- أوبانيشاد سفيناسفاترا :

تُنسف هذه الأوبانيشاد إلى كاتبها الحكيم " سفينا سفاترا"، الذى لقنها لمريديه فى عصر متأخر نسبياً .

وتتميز هذه الأوبانيشاد عن غيرها بأنها تركز الحديث على "الله" الواحد أكثر مما تركز على " المطلق " الذى يوجد فى سائر الأوبانيشاد الأخرى. يقول سفيناسفاترا : " الله يحكم الفانى وغير الفانى . بتأملنا فيه، باتحادنا معه، وبدخولنا كيانه ، ننقطع عن أوهامنا نهائياً. بمعرفتنا لله تسقط قيودنا عنها. وعندما تنهدم تعاستنا ، تتوقف ولادتنا وموتنا " .

ويؤكد سفيناسفاترا على أن براهمان هو الروح التى توجد فى كل شئ، وتتعمق جذورها بالمعرفة والتقشف. ويعد براهمان أعلى من هذا العالم ، ومختبأ فى كل الأشياء ، وحاويا للكون كله . وبمعرفته أنه الرب (إيشا) يصبح الناس خالدين. ولا يوجد من هو أعلى منه، ولا أصغر، ولا أكبر . إنه يوجد فى ما وراء العالم، ولا شكل له ، ولا يعتريه مرض. والإنسان الذى يعرف هذه الحقائق يصبح خالداً ، أما من يجهلها فإن الأمراض تجتاحه .

وتتأكد عقيدة وحدانية الله فى قول سفيناسفاترا عن الإله إنه " الواحد الذى بدون لون، بتطبيق قدرته المتنوعة يوزع ألواناً كثيرة فى هدفه الخفى. هو الله الذى يعود إليه العالم كله، بدايته ونهايته ! ليمنحنا الذكاء الصافى ! .. شكله لا يرى ولا أحد يره بالعين . والذين يعرفونه بالعقل والقلب ويعرفون أنه يسكن القلب، يصبحون خالدين" .

ويلّح سفيناسفاترا على أن تحرر الإنسان لا يتم إلا من خلال معرفة الإله الواحد؛ يقول : "هو من لا بداية ولا نهاية له ، وسط الفوضى، خالق الكل، خالق كل شكل متنوع، حاوى الكون كله – بمعرفة الله يتحرر الإنسان من القيود".

١٢- أوبانيشاد كاوشتاكى :

تُعرف هذه الأوبانيشاد بسم مؤلفها الحكيم كاوشيتكى الذى يذهب إلى أن عناصر الكينونة مثتبة فى عناصر الذكاء، وعناصر الذكاء مثبتة على الروح المتنفسة، والروح المتنفسة هى المحرك الأول للكون . يقول : " العناصر العشرة الموجودة (الكلام ، الرائحة ، الشكل، الصوت، الذوق ، العمل ، اللذة والألم ، والغبطة وهى البهجة ، والتوالد ، والعقل) تتعلق بالذكاء. والعناصر العشرة للذكاء (المتكلم، الشام ، الرائى ، السامع ، محب الذوق ، الفاعل، المميز بين اللذة والألم، مميز الغبطة وهى البهجة ، والمتوالد ، والمفكر) لها علاقة بالوجود . حقاً ، لو لم توجد عناصر للكينونة ، لما وجدت عناصر للذكاء .. ولو لم توجد عناصر للذكاء، لما وجدت عناصر للكينونة. من أى منهما لوحده نتج أى مظهر مهما كان نوعه؟ وليس هذا تنوعاً . إن عناصر الكينونة مثبتة فى عناصر الذكاء ، وعناصر الذكاء مثبتة على الروح المتنفسة . هذه الروح المتنفسة هى فى الحقيقة الروح المدركة : إنها الغبطة ، الخالدة ، التى لا تشيخ . إنها لا تعظم بالعمل الجيد ، ولا تحقر بالعمل السئ . هى ذاتى . هذا ما يلزم أن يعرفه الإنسان " .

١٣- أوبانيشاد مايتريى :

نسبة إلى " ما يترى " ، وتتحدث عن الروح العظمى ، وبراهمان اللانهائى، والروح التى لا توصف. غير أن أهم ما يميزها هو الحديث عن صورتى "آتمان" الظاهرة وغير الظاهرة، والذات العنصرية والذات الكلية ، تقول أوبانيشاد مايتريى عن (الذات العنصرية) : " حقا توجد ذات أخرى تسمى الذات العنصرية.. العنصر هو الجواهر الخمسة الحاذقة . هكذا نتحدث عنها بأنها العنصر . والجسد هو نتيجة اجتماع هذه العناصر . ومن يكون فى الجسد يكون فى (الذات العنصرية). هذه (الذات العنصرية) تتغلب عليها صفات الطبيعة " .

وتتحدث الذات العنصرية مع الذات الكلية على أساس قاعدة حددتها أوبانيشاد مايترى كما يلى : " دراسة معرفة الفيدا واتباع الإنسان لواجبه. إن اتباع الإنسان لواجبه، أثناء مرحلة الحياة، هى القاعدة ! والقواعد الأخرى مثل باقة من العشب. بهذه القاعدة يعلو الإنسان ولا ينزل. هذا هو الواجب المذكور فى الفيدا . إنالقيام بالواجب لا يتم بالأسى . وإذا لم يمارس الإنسان التقشف فإنه لن ينجح فى عرفة الروح ولا كمال العمل .. هكذا إذن ، بالمعرفة ، بالتقشف، وبالتأمل ندرك براهمان .. وعندما يتحرر راكب العربة من هذه الأشياء التى تغلب عليه وملأته ، عندئذ يتحد اتحاداً كليا مع آتمان " .

والسبيل إلى تحقيق الوحدة الكاملة مع براهمان اللانهائى هو اتباع طريقة اليوجا ذات الجوانب الستة التى ذكرتها أوبانيشاد مايترى، وهى :

التحكم فى التنفس ، السيطرة على الحواس ، والتأمل ، التركيز ، التفكير العميق ، الأخذ بالموضوع.

ومن القصص ذات الدلالة الفسفية فى أوبانيشاد مايترى قصة ذلك الملك الذى ترك مملكته، وذهب إلى الغابة زاهداً فى الدنيا ومتخليا عن زخرفها وملذاتها؛ رغبة فى أن يصفو ذهنه، ويتمكن من فهم الحقيقة، ويعرف سر الوجود . وقد مكث الملك ألف يوم فى تلك الحالة من الزهد والتقشف داخل الغابة ؛ حتى أتى حكيم عالم بالروح ، فقال له الملك : "أنت ممن يعلمون طبيعة الروح الحقيقية ؛ فهلاً أنبأتنا عنها ؟ " ، فقال الحكيم منذرا : "اختر لنفسك مآرب أخرى" ، لكن الملك يلّح فى طلب معرفة الحقيقة ، ويعبر عن استيائه من الحياة الدنيا، وخوفه من أن يعود إليها مرة أخرى فى دورة تناسخية جديدة فيقول : " سيدى، ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد النتن المتحلل ، الذى يتآلف من عظم وجلد وعضل ونخاع ولحم ومنىّ ودم ومخاط ودموع ورشح أنفى وبراز وبول وفساء وصفراء وبلغم؟ ما غناء إشباع الرغبات فى هذا الجسد الذى تملؤه الشهوة والغضب والجشع والوهم والخوف واليأس والحسد والنفور مما ينبغى الإقبال عليه والإقبال على ما يجب النفور منه، والجوع والظمأ والعقم والموت والمرض والحزن وما إليها؟ وكذلك نرى هذا العالم كله يتحلل بالفساد

كما تتحلل هذه الحشرات الضئيلة وهذا البعوض وهذه الحشائش وهذه الأشجار التى تنمو ثم تذوى .. وإنى لأذكر من كوارث العالم جفاف المحيطات الكبرى وسقوط قمم الجبال وانحراف النجم القطبى رغم ثباته .. وطغيان البحر على الأرض ... فى هذا الضرب من تعاقب أوجه الوجود، ما غناء إشباع الرغبات ، ما دام بعد إشباع الإنسان لها سيعود إلى هذه الأرض من جديد مرة بعد مرة ؟ " .

***الكتب المقدسة فى الهندوسية**

- الرامايانا The Ramayana :

ملحمة مقدسة كبرى فى الديانة الهندوسية ، تُنسب إلى الحكيم فالميكى Valmiki الذى ربما يكون كتبها في القرن الثالث قبل الميلاد. وقد قام الشاعر تولسى Tulsi (١٥٣٢ - ١٦٢٣م) بإعادة كتابتها . وتتكون من ٢٤٠٠٠ ألف بيت[٣٠].

وكثير من مشاهد الرامايانا منحوتة على جدران معبد أنكورفات Angkor Vat فى كمبوديا [٣١]. وهى تحتوى على قصة حياة الملك راما ملك أيودا Ayodhya الذى يعد أحد تجسيدات الإله فشنو.

وراما هو إله القوة، إنه يواجد الشياطين، مع بقائه بن الناس . وهو فيهم النموذج المعبود الملاحظ ومبدع التنظيم المثالى للأشياء (الدهارما)؛ إنه الكائن الأسمى المرتبط بالإنسانية .

ويحتفل الهندوس بعيد " أيودها بوجا" سنوياً كرمز لانتصار الإله راما على عدوه الشرير. وقصة هذا الانتصار ترويه الرامايانا فى ملحمة ليست مليئة فقط بالمعتقدات الهندوسية، بل كذلك المفاهيم والمبادئ السياسية، وتحتوى على معالم الرؤية الدرامية للحياة التى تسيطر على الخيال الهندوسى، والتى نجد لها انعكاسات واضحة على حياتهم، بل تبدو أيضاً فى إبداعاتهم الفنية بما فيها الأعمال السينمائية فى العصر الحديث .

وتبدأ الملحمة المقدسة[٣٢] بذكر العصر الذى كان يحكم فيه ملك يدعى داسارثا مملكة كوسلاسى حكماً مثالياً جعل الشعب يعيش فى رخاء وسعادة وعدالة. وكان هذا الملك لا ينجب. وحباً من شعب له ، فقد كانوا يصلون إلى الآلهة وعلى رأسهم براهما ، ويقدمون

القرابين ، طالبين أن ينعموا على مليكهم بالذرية التى تلى العرش من بعده. وفى أثناء إحدى الصلوات التي كان يشارك فيها الملك مع كهنته ، ويقدمون فيها القرابين للإله براهما، تجلى لهم الإله فيشنو وهو متجسد فى هيئة نمر جالساً وسط النيران المقدسة، ووجه حديثه للملك داسارثا قائلاً : " خذ هذا الأرز المقدس، واللبن الحليب، ووزعه على زوجاتك؛ فقد أرسلنى براهما لأبشرك بغلام اسمه راما، يكون له ثلاثة إخوة آخرين من كل زوجة من زوجاتك".

وفعلاً نفذ الملك ما طلبه منه الإله المتجسد، وتحققت البشرى؛ فأنجب الملك أربعة أبناء ذكور، أكبرهم راما الذى أنجبته الملكة كوساليا، والابن الثانى يسمى بهارات أنجبه الملك من زوجته الصغيرة الجميلة كايكيى، أما الابن الثالث فيدعى لاكشمان، والابن الرابع يدعى ساتروجنا، وهما توأم ، وقد أنجبهما الملك من زوجته سيمترا . وأصبح الأخوة الأربعة متحابين يتفانون فى خدمة أبيهم.

وكانت توجد مملكة ثانية، وهى مملكة فيدها، وكانت ملكها يدعى جاناك، وكان له ابنة بالغة الرقة والجمال. وعندما بلغت سن الزواج أعلن الملك أن من يستطيع أن يشد قوسه الضخم ليثنيه حتى يكسره، جدير بأن يزوجه ابنته . وحضر الأمراء من جميع مناطق الهند، لكنهم عجزوا عن تنفيذ شرط الملك. وحضر الأمير راما معلنا رغبته فى اجتياز الاختبار قائلاً: " أرونى هذا القوس العجيب". وجاء الحراس بالقوس الضخم محمولاً على عربة حديدية كبيرة ذات ثمانى عجلات، وقال الملك جاناك : "هذا هو سلاح آبائى يتوارثونه أباً عن جد لا يستطيع أقوى المحاربين وأعتاهم جذب وتره"! فقام راما فى ثقة وثبات، ورفع بيديه غطاء العربة الثقيل، وأمسك بالقوس ورفعه عالياً، وفى قوة هائلة جذب وتره فانثنى القوس حتى انكسر قطعتين بين إعجاب الجمهور وصيحاته .

وخرج الأمراء المنافسون وعلامات الفشل تعلو ملامحهم. وألقى الملك جاناك كلمة على الحاضرين معلنا قبول راما زوجا لابنته سيتا.

وذهبت الرسل لإخبار الملك داسارثا بنجاح ابنه راما فى اختبارات الزواج من الأميرة، ودعوته لحضور مراسم الزواج . وذهب الملك بالفعل ، واستغرقت الرحلة أربعة أيام، وكان فى استقباله الملك جاناك أبو العروس الذى أعد له مراسم استقبال حافلة. ولم يقتصر الزواج على راما وسيا، بل شمل سائر إخوة راما؛ حيث تزوج الأمير لاكشمان من الأميرة أورميلا رائعة الجمال، والأمير بهارات من الأميرة مندافى، والأمير ساتروجنا من الأميرة سروتاكيرتى. والأميرتان الأخيرتان هما ابنتا شقيق الملك جاناك.

وقد عاد الجميع، بعد انتهاء حفلات الزواج، إلى عاصمة مملكتهم أيودها؛ حيث كانت الرعية فى استقبالهم وأُقيمت الاحتفالات بالزواج فى كل أرجاء المملكة. وفى تلك الأثناء حضر الأمير يوداجيت شقيق الملكة كايكيى ، وهو حاكم إقليم ايكيا الذى يقع على الحدود الغربية من مملكة داساراثا، وطلب من الملك أن يسمح للأمير بهارات بأن يشاركه فى إدارة الإقليم. ورحب الملك بذلك . فذهب الأمير مع زوجته الأميرة فى موكب كبير محاط بحراسة مشددة .

بعد ذلك، رأى الملك أنه قد وصل لسن الشيخوخة، وأصبح ينوء بمقاليد الحكم؛ فعقد العزم على اختيار ولى للعهد لينوب عنه فى الحكم وهو حى على أن يتولى المملكة بعد موته. ووقع الاختيار على راما الابن الأكبر الذى يتسم بالشجاعة والأخلاق. وجمع الملك مستشاريه ليأخذ رأيهم فى تولى راما ولاية العهد. وبالفعل وافق المستشارون على ذلك وفى صباح يوم غد جمع جمهور المملكة أمام قصره ليبلغهم رغبته؛ وكانت استجابة الناس سريعة وترحيبهم كبيراً.

لكن دائماً الأمر لا تسير بسلاسة؛ حيث كانت المملكة كايكى أم الأمير بهارات تقف تتابع الموقف فى حجرتها بالقصر، وهى سعيدة وغير معارضة لما يتم. وكانت تقف بجانبها مربيتها مانتارا وقد امتلأ قلبها حقدا وحسدا للأمير راما؛ فشرعت تبث نار حقدها ؛ حيث قالت للملكة كايكيى :

" كيف ترضين أن يتولى راما الملك دون ابنك الأمير بهارات ؟! " ..

فردت الملكة بقولها :

" إن الأمير راما هو الابن الأكبر للملك، وهو مخلص محبوب، ومنذ قديم الزمان والتقاليد تجرى على أن يتولى الابن الأكبر الملك، ثم من بعده أخوه الذى يليه وهكذا".

فقالت المربية لها :

" وما يدريك أن الأمير راما عندما يتولى الملك لن يسعى إلى التخلص من ابنك الأمير بهارات ليحصر الملك فى أبنائه هو ؟ إن حياة ابنك مرهونة بألا يتولى الأمير راما الملك " !

وأخذت تبث تلك المربية الحقود سمومها ، وتزرع نار الغيرة والحقد والخوف فى قلب الملكة كايكيي التى اقتنعت فى النهاية بما تقوله المربية.

وخرج الملك داسارثا ليجوب أنحاء مملكته ، معلنا تولى ابنه راما ولاية العهد وبعد عودته من رحلته الطويلة المنهكة ، كان يملؤه الشوق إلى زوجته الجميلة الصغيرة كايكيي أجمل زوجاته وأقربهن إلى فؤاده. وذهب إلى غرفتها بالقصر الملكى فلم يجدها، وبحث عنها فى القصر كله فلم يجدها كذلك؛ فخرج إلى الحديقة فوجدها تبكى بكاءا شديدا؛ فسألها قائلاً:

" لماذا تبكين ؟ من هذا الذى جرؤ على إهانتك وإبكائك ؟ إن كنت تشكين مرضاً أو ألماً ، فإن أمهر الأطباء ينتظرون إشارة منك ليعالجوك مما تشكين منه. أما إذا كنت تبكين من شخص أغضبك فامسحى دموعك ؛ لأن مصيره قد أنطفأ كما تنطفئ الشمعة الموقدة، وسأصدر أمراً بإعدامه فورا! تكلمى يا زوجتى الحبيبة الصغيرة؛ فإنى وجميع أتباعى وحاشيتى سنسرع لتنفيذ كل طلب تطلبينه . إن مملكتى متسعة الأرجاء، بعيدة الحدود، يسكنها أشجع الرجال وأمهر الفرسان، وكلهم فى انتظار إشارة منك ليخدموك بقلوبهم وأرواحهم؛ فإنى والحكام والأمراء جميعاً رهن أوامرك " .

وظلت الملكة الصغيرة المدللة تبكى وهى تخفى رأسها بين ذراعيها ؛ مما زاد من انفعال الملك وتأثره .

وأخذ رأسها بين يده، وأقسم برأسها أنه سينفذ أية رغبة تبديها له مهما كانت غالية أو مستحيلة، وأن الآلهة الثلاثة والثلاثين يشهدون على صدق قسمه الغالى. فرفعت الملك رأسها قائلة :

" لقد أقسمت قسماً مقدساً يشهد عليه ثلاثة وثلاثون إلها، والشمس، والنهار، والليل المظلم، وهذا الكون الواسع ، وتلك الأرض الفسيحة. إن الملوك ينفذون ما ينطقون به، أما إذا حنثت بوعدك لى ؛ فإنى أنا الملكة كايكيى المسيكنة سوف أكون ضحية حنثك فى يمينك ؛ لأنى لابد أن أكفر عنك بقتل نفسى ترضية للآلهة. إن ما أطلبه منك ، وعليك أن تبر بقسمك ، هو أن تجعل ابنى بهارات – وليس راما – الملك على البلاد، وأن يعيش راما منفياً أربعة عشر عاماً وسط الغابات مرتديا جلد الحيوانات، ويسكن الكهوف وأكواخ النساء، هذه هى رغبتى فى أن أرى ابنى بهارات يجلس اليوم على العرش، ون ينفى راما فى اليوم نفسه".

فغضب الملك غضباً شديداً لطبلها، وثار ثورة عارمة، وقال لها :

" أبهذا الشرير تجازين ثقتى فيك، أتخونين مليكك وزوجك؟ لسوف تقضين على المملكة كلها بالخراب والدمار نتيجة طمعك وجشعك. لماذا تريدين معاقبة راما المحبوب من الشعب الذى يحترمه ؟ ! إن راما يحبك كأنك والدته تماما، وأنا ألم آويك فى قصرى وأجلسك على عرض قلبى ، أولم تجدى الدفء والغذاء فى منزلى؟ فتكونين بعد ذلك كالحية الرقطاء تنفث سمومها المميتة من تحت ضرسها ، أتطلبين الآن نفى راما الشجاع النبيل وطرده إلى الغابات المظلمة الأدغال القاسية؟ إنى لن أفارق ابن راما حتى أموت ويبرد جسمى، اطلبى أى طلب آخر أيتها الزوجة، لتريحى سنواتى القليلة الباقية من عمرى، اطلبى أى ثروة مهما بلغ مقدارها، أهبها لك، أتريدين مجوهرات وكنوزاً ثمينة ؟ أم ترغبين فى أن أقطعك القلاع الغالية والأراضى الواسعة الخصبة ؟ اطلبى منى أى هدية أخرى وأنا أمنحها لك فى الحال ، ولكن لا تلخطينى بهذه الجريمة البشعة الدنسة فأخون ابنى راما".

وردت عليه الملكة ببرود وتصلب شديدين قائلة :

" إن كان قلبك الملكى لا يرضى بتنفيذ ما أطلبه ، فاحنث إذن فى قسمك المقدس ودنس شرفك الملكى، يا من تدعى الشرف والوفاء، يا من اشتهرت فى العالم أجمع بين الملوك والحكام بفضائلك وأخلاقك القويمة. وغدا سوف يجتمع الملوك والأمراء من جميع أنحاء الهند فى قاعة العرش؛ فقص عليهم – إذا كان هذا يرضيك – ما سيحيق بزوجتك من سوء، تكفيرا لك عن حنثك فى قسمك أمام الآلهة، وكل جريرتها أنها تفانت فى حبك وخدمتك بإخلاص، فكان هذا جزاؤها منك، اذكر لهم كيف أن ملكا رضى بأن يخلف وعده، وكيف أن امرأة ماتت جزاء خديعتك لها " .

فقال الملك منفعلاً :

" إن لك وجهاً جميلاً ، وقدا رشيقاً، ويطل من عينيك سحر لا يقاوم، وفى قلبك رحمة لا مثيل لها، فلماذا يتحول كل هذا الآن إلى شر وخراب؟ أراك توقظين القسوة الجامحة من مرقدها فتبعث حية . ولماذا تتركين الأرواح السوداء الشريرة تعبث بقلبك؟ لقد صنعت لنفسك شهرة واسعة منذ اليوم الأول الذى جئتنى فيه عروساً صغيرة؛ لقيامك بواجباتك الزوجية بكل تفان وإخلاص؛ حتى أصبحت مثلاً يضرب للمرأة الوفية فكيف تبدر منك الآن مثل هذه القسوة والرغبة المتوحشة فى إبعاد ابنى الأكبر راما إلى الأدغال الموحشة المظلمة؟ ولماذا تتحايلين بمثل هذه الوسائل السوداء لتنفيذ مآرب لك غير مشروعة ؟ هل تظنين أنك ستشعرين بالراحة فى حياتك المقبلة بعد أن تنفذى انتقامك من راما دون سبب؟ اعلمى أنك إن كنت تبحثين عن طريقة إجرامية لتجلسى ابنك على العرش، فهذا العرش لا يستحقه بهارات، وسوف تلطيخنه بجريمتك. وهل أرضى أن أرى ابنى راما يلبس الخيش ويطرد من منزلى ليصبح شريدا طريدا فى الغابات؟ وهل قُدر لى أن أرى المصائب تهب على مملكتى ، وتصيب أولادى ، وأن أسمع بأذنى الملوك المجتمعين يتهامسون قائلين : (إن دارسارثا الضعيف الأحمق يحكم مملكته بجنون)؟ وهل أقول لهم : إننى طردت ابنى استجابة لأوامر امرأة تقودنى؟ ".

فردت عليه الملكة التى امتلأ قلبها حقداً ومكرا :

" إن كان قلبك الملكي يشفق أن ينفذ طلبي، إذن فاحنث في قسمك الملكي. لقد سمعت الناس يقولون : (إن مملكتك تقوم على عمد من الصدق، وأن كلمة تصدر من شفتي الملك لا يمكن النكوص عنها؛ لأن الملك داسارثا يحكم بالفضيلة وبالأمانة). أما الآن فأعلن على الملأ أن داساراثا قد كذب، وأنه غرر بامرأة مخلصة مسكينة وحطم قلبها فقتلت نفسها " .

وعندما جاء صباح اليوم التالي حضر راما ليستعد لحفلة تنصيبه ، وذهب لمقر أبيه، فوجده في حالة سيئة مهموماً، وكانت الملكة كايكيي تجلس بجواره. وفي احترام وتقدير لمس راما رجل أبيه الملك تحية له. ثم فعل الفعل نفسه مع الملكة كايكيي كأنها أمه. فدمعت عيون الملك، ولم يرد عليه التحية ، وصاح بصوت عال قائلاً : " راما" . الأمر الذي أقلق راما وجعله امتلأ بالهم فجأة .

وسأل راما الملكة قائلاً :

" تكلمي يا أمي ماذا فعلت؟ هل أخطأت في حق أبي ؟ إني لا أذكر شيئاً يغضب أبي قد صدر مني ، لماذا يبدو وجه أبي متغيرا والدموع تنهمر من عينيه؟ هل يشكو ألما في جسمه ؟ على من حادث يشغل بالغه؟ هل أخي بهارات بخير ولم يحدث له ما يكدره؟ أخبريني يا أمي العزيزة ؛ فإني لأضحي بحياتي ومستقبلي ولا أرضى أن أجرح قلب أبي".

فردت عليه الملكة ببرود :

" إن الملك ليس غاضباً ، ولا يشكو ألما ، ولكنه يكتم أمرا مؤلماً لا يريد أن يخبرك به إلا بعد أن تعده بأن تنفذ ما يطلبه منك " .

"إني أهب حياتي كلها في سبيل كل ما يطلبه مني أبي " .

فقالت الملكة :

" إذن استمع إليّ ؛ فمنذ سنوات كثيرة ماضية، وقبل أن تولد، حدث أنني أنقذت حياة والدك، وقد أقسم لي حينذاك بقسم وعدني فيه أن ينفذ لي ما أطلبه منه، ولكنه الآن عندما طالبته بتنفيذ أمنية لي ، أجد قلبه قد ضعف ، ويعتزم أن يحنث في قسمه، لقد مرت السنون

ونسى وعده، ولكن الملوك لا يكذبون أبدا، ويلتزمون الصدق فى كل ما يتفوهون به ، فإذا كان راما الصادق الشجاع يلتزم أمامي تنفيذ قسم والده، فسوف أخبرك بما يؤلم والدك".

فقال راما :

" أخبرينى بالحقيقة ، وإنى ألتزم تنفيذ قسم والدى " .

فقالت :

" استمع إذن إلى قسم والدك وحافظ عليه بحياتك .. لقد وعد والدك أن يصبح بهارات وارث عرشه، وأن ينفي راما بعيداً ، وعليك أن تبقى أربعة عشر عاماً فى غابات وانداك تتجول بين الأحراش، وتسكن الكهوف وأكواخ النساك، وأن يحكم الأمير بهارات مملكة أبيه، وتكون له ثرواته وقصوره وعرباته، وأن تحرسه جيوشه العديدة. ولما كان أبوك يشعر فى قلبه بالإرهاق من كبر سنه، ومن الحزن والأسف، لحبه لك ، أقسم ألا يتحدث أبداً ، ويصوم عن الكلام ، ولذلك فإنى بدلاً عنه أطلعتك على حقيقة رغبته، وعليك أن تطيعه".

وكان رد فعل راما سريع الاستجابة لما أقسم عليه، ولم يظهر عليه أى غضب لما حدث. وأرى استعداداته للرحيل فى هدوء، وذهب إلى زوجته سيتا لكى يودعها ، وأخبرها بما حدث وبما هو عازم عليه ؛ فقال :

" زوجتى الحبيبة الغالية سلسلة الملوك ، سأفارقك الآن ؛ فإنى راحل لسنوات عديدة أتجول فيها بين الأدغال الكثيفة؛ إذ أن والدى قد وعد كايكيى وعداً تتمسك به، إنها تريد أن يتولى ابنها بهارات العرش، وأن أنفى أنا أربعة عشر عاماً فى الغابات والأحراش، ولكنى قبل أن أفارقك أحب أن تعدينى بحق حبنا الطاهر الصادق أن تخدمى أخى بهارات بكل إخلاص، ولا تحدثيه أبدا عن فضائل راما، ولا عن حق راما فى الملك. أخلصى له وأطيعيه كما تطيعين أخا لك . فطالما وعد أبى فلابد من أن أنفذ وعده وأرضى بسنوات العقاب عن طيب خاطر. كونى شجاعة فى حزنك وفى تحملك بعدى عنك، لتكونى أشهر امرأة فى إخلاصها، حافظى يا سيتا أثناء بعدى عنك على فروض الصيام، وعلى العبادات ، وآمنى بالآلهة ، وآمنى بالفضيلة. عليك بأن تشاهدى شروق الشمس كل يوم، وأن تصلى للآلهة ،

وأن توقرى والدى داساراثا، ووالدتي كوساليا ، بكل ما تستطيعين من إجلال وإعزاز . وأوصيك بحب الملكة كايكيي سيمترا، وأن تعظيمهما ، ولا تنسى أن تظهرى الحب الأخوى للاكشمان وساتروجنا . إياك ياسيتا أن تتفوهى بكلمة غضب أو لوم لأخي بهارات فسيكون ملكا على مملكة كوسلاسى".

وكان موقف سيتا عظيماً ؛ حيث قالت له :

" هل ما أسمعه هو حقيقة صوت سيدى وزوجي ؟ هل على الزوجة أن تترك زوجها وسيدها عندما ينفى ؟ إنى لن أطيع نصائح سيدى؛ لأنها لا تليق بزوجي الأمير العالى المنزلة الكريم الخلق ؛ فالمرأة المخلصة تتبع سيدها وزوجها حيثما يذهب، وفى نفى راما يصير نفى سيتا مفروضاً . سدبى وزوجي، لا الابن ولا الأخذ يستطيعان أن يحكما على المرأة المتزوجة؛ فمع سيدها ترتفع أو تسقط، ومع خدينها يرتبط قدرها . فإن كان ابن الملك داسارثا سيقصد الأدغال الموحشة فإن سيتا سوف تسير أمامه فى طرقات الغابات لتزيل بيديها الأشواك والحشرات المؤذية من أمام قدميه. خذنى معك إلى الأدغال الموحشة؛ فالقصور الفارهة، والعربات المطهمة ، كلها عبث فى حياة المرأة، وإنما أثمن كنز فى نظرها هو ظل زوجها على الأرض. كانت أمي تعلمنى دائماً وكذلك أبى : إن منزلة المخلصة تتبع زوجها كظله، ولا تفارقه حتى تفارق روحها جسدها. اسمح لى أن أتجول معك فى الأدغال والغابات الموحشة؛ حيث تمرح الغزلان فى حرية، وحيث يتخذ الأسد عرينه ؛ فسيتا ستكون هناك أسعد مما كانت فى منزل والدها؛ لأنها ستعيش فى كنف زوج يحبها وتحبه".

ولم يكن هذا الموقف النبيل هو موقف سيتا فقط، بل كان موقف اخيه لاكشمان ؛ حيث أصر على أن يصحبه فى منفاه.

وخرج الثلاثة إلى المنفى ، يتبعهم آلاف من مواطنى المملكة لتوديعهم ، وقد كان جميعهم حزانى لما حدث للأمير راما. وقد ظلوا يتبعونهم حتى وصلوا إلى ضفة نهر تاماسا، حيث توقف الثلاثة ليبيتوا ليلتهم، لكن عندما ساد الظلام تسللوا متجهين إلى مقر منفاهم، حتى لا يتبعهم أحد.

وتصف ملحمة رامايانا تفاصيل الليلة الأولى التى قضاها راما فى الغابة، حتى أنها لتذكر كل خطوة خطاها. ولقد أصبحت الطرق التى سار فيها بالغابة محفورة فى ذاكرة الهندوس حتى الآن، وغدا السير فيها من معالم الحج؛ حيث يسير فى كل عام فى هذه الطرق نفسها آلاف الحجاج الهندوس .

ولقد عبر راما وزوجته وأخوه نهر الجانج فى اليم الثالث، ووصلوا إلى أكواخ النساك فى بهاراد – فاجا بحلول اليوم الرابع ، وهذا هو المكان الذى أصبح بعد ذلك باسم مدينة الله أباد المقدسة عند ملتقى نهر الجانج وجومنا. ولقد عبر الثلاثة فى اليوم الخامس نهر جومنا إلى ضفته الجنوبية؛ حيث كانت تغطيها الغابات الكثيفة. وفى اليوم السادس وصلوا إلى تل شتراكوتا؛ حيث قابلوا الناسك فالميكى وهو مؤرخ مشهور. ومنذ ذلك اليوم يعتبر هذا التل الأخضر أقدس بقعة فى الديانة الهندوسية.

وكل الأماكن المحيطة بالتل هى بلاد راما، ولكل موضع فيها أسطورة وقداسة، ولكل كهف علاقة بأسطورة راما المقدسة وبعد ذلك أصبح آلاف الهندوس يزورون هذه البقعة ، وحول التل يوجد ممر بين الصخور يسير فيه الحجاج وأقدامهم عارية تمجيدا لراما وزوجته.

ولقد حزن الملك دارساراثا حزناً شديداً لما حدث، حتى وصل إلى مرحلة الاحتضار، وأثناء احتضاره قص على المحيطين به قصة حدثت معه وهو شابَ؛ حيث كان من أمهر رماة القوس، حتى أنه كان يصيب هدفه بمجرد سماعه صوت فريسته . وفى يوم ما خرج يصطاد، وراح يطارد غزالة شاردة اختفت بين الحشائش، وبينما هو يبحث عنها سمع صوت حركة وراء الحشائش العالية، وفى سرعة أطلق نحو مصدر الصوت نشابة (= النبل) من قوسه ، وإذ بصرخة مدوية تصك سمعه، وعندما أسرع نحو مصدرها وجد أنه قد أصاب صبيا كان يستحم فى مجرى ماء. ومات الصبى بين يديه، وكان هذا الصبى ابن ناسك براهمانى متعبد. ويعتبر الملك أن ما حدث له ولابنه راما هو عقاب القدر له على ذلك الخطأ الذى تسبب فى قتل صبى وحزن أبيه عليه.

ثم توفى الملك. وكان بهارات على الحدود الغربية للمملكة ، وعندما وصل إليه خبر موت أبيه وعلم بنفى أخيه راما، واتخذ موقفاً شهما ونبيلاً ؛ إذ رفض أن يتولى الملك، وذهب يبحث عن راما وسط الغابات، حتى وجده ف ى" شتراكوتا"، وطلب من راما أن يعود ليتولى الملك. ولكن راما رفض لأنه لا يريد أن يخلف وعده، وصمم على البقاء فى المنفى. وأخذ ينصح أخاه بهارات بواجبات الحاكم العادل نحو شعبه.

وجاءت الملكة كوساليا أم راما لتقابله وتحاول أن تنصحه بالعودة لتولى الملك، لكنه رفض، كما فشلت معه جميع المحاولات الأخرى لإعادته. ورجع بهارات إلى عاصمة المملكة آخذا صندل راما ليضعه فوق كرسى العرش رمزا لحكم راما للبلاد رغم منفاه الذى أصر على الاستمرار فيه .

ولقد ترك راما شتراكوتا متوغلاً داخل أدغال الدانكان لا يستطيع أقاربه وأصدقاؤه أن يجدو ويلتقوا به. وفى أثناء طريقه زار قديساً يدعى أثرى، ورحبت، زوجة أثرى بالأميرة سيتا زوجة راما، وألبستها ملابس جميلة وزينتها بعقود من الأحجار الكريمة. ثم واصل الثلاثة راما وسيتا ولاكشمان الرحلة داخل الغابات جنوباً بعيداً عن شمال الهند وأخذوا يتجولون فى إقليم الدكن بوسط الهند ثم واصلوا رحلتهم إلى جنوب الهند وقد قابلوا القديس أجاستيا الذى تروى عنه كثير من الأساطير التى تحكى عن معجزاته. وعلى مسافة حوالى العشرين ميلاً من منسك أجاستيا استقر راما وزوجته وأخوه وسط غابات بانشافاتى بجوار منابع نهر جوادفرى (على بعد مائة ميل من مدينة بومباى الحالية).

وتروى الملحمة أنه فى أثناء حياة الثلاثة معاً حياة تأمل وتعبد، حدث ذات يوم أن أميرة من الجن تسمى الأميرة راكشا كانت تتجول فى الغابة، فرأت راما نائما، فجنت به حبا وولها، وحاولت التقرب إليه، ولكنه لم يبال بها . وقد صدها أخوه لاكشمان ساخرا منها. وعندما وجدها تنوى شرا بسيتا زوجة راما، أسرع بسيفه يجدع أنفها ويثلم أذنيها عقابا لها. ونظراً لما نالها من إهانة ما أصابها من إصابات، غضبت غضباً عارما، وذهبت إلى أخيها الملك رافانا حاكم جزيرة سيلان نقص عليه ما أصابها من راما وأخيه؛ مما أشعل نيران الغضب والانتقام

فى صدره. وكان سكان جزيرة سيلان — كما تقول الملحمة — من الشياطين المردة، ويمكنهم التشكل فى صور مختلفة تبعاً لرغباتهم. (من الواضح أن هذا الاعتقاد عن الشياطين المردة مشترك بين معظم الديانات إن لم يكن كلها). وتروى الملحمة أن رافانا أرسل تابعه ماريشا متشكلا فى صورة غزالة جميلة أخذت تحوم حول راما وصاحبيه. وقد أعجبت سيتا بجمال الغزالة النادر؛ وطلبت من راما أن يصطاد لها هذه الغزالة، فذهب يطاردها حتى ابتعد كثيرا . وفى هذه الأثناء اصطنع رافانا صوت راما، وأخذ يستغيث بأخيه لاكشمان من خطر يحيق به؛ فذعرت سيتا، وطلبت من لاكشمان أن يسرع إلى راما لإنقاذه من الخطر الذى يحيق به. ولكن لاكشمان احتاط للأمر وحذرها أن هذه حيلة لاجتذابه بعيداً عنها لإلحاق الضرر بها. ولكنها من شدة لهفتها على زوجها نهرته بشدة وأهانته، فى نوع من التسرع، بقولها له إنه يرغب فى التخلص من زوجها راما لغرض خبيث فى نفسه! وكانت تلك هى المرة الوحيدة التى يصدر فيها خطأ من هذه الشخصية المثالية فى الأسطورة. وقد اضطر لاكشمان إزاء موقفها أن يتركها ليبحث عن أخيه راما، وما إن ابتعد حتى تسلل رافانا إلى سيتا، وتمكن اختطافها وحملها فى عربته والهروب بها.

وعند عودته راما ولاكشمان ، لم يجدا سيتا؛ فأخذا يبحثان عنها فى كل مكان حتى وصلا إلى جبال النلجيرى فى جنوب الهند؛ حيث تقابلا مع الملك سوجريفا ملك فاناراس الذى كان يعيش منفياً هو الآخر مع وزيره الشجاع هانومان. واتفق راما مع الملك سوجريفا على التعاون والتحالف ضد شقيق سوجريفا، واسمه بالى، الذى استولى لنفسه على الملك ونفى أخاه من المملكة. تقول الملحمة إن سكان هذه المناطق آدميون لهم وجه قردة أو دببة.

وذهبا الاثنان إلى بالى، وطلب سوجريفا منه أن يبارزه ، وقبل بالى التحدى، ودخلا الاثنان فى نزال عنيف حتى سقط سوجريفا مصاباً؛ فاندفع راما إلى منازلة بالى منازلة انتهت بمصرع بالى. وبهذا عاد سوجريفا إلى تولى الملك الضائع مرة أخرى.

وقد أراد سوجريفا أن يرد الجميل إلى راما؛ فكلف عشرة آلاف رجل من خيرة جنوده بالبحث عن سيتا التى اختطفها رافانا. وأخيراً تمكن هونومان (حتى الآن يقدس سكان جنوب

الهند هانومان ويعلقون صوره في كل مكان، وهي عبارة عن صورة رجل له وجه قرد) تمكن من اكتشاف سيتا سجينة في جزيرة سيلان. وتروى الملحمة أنه لما كانت سيلان جزيرة تنفصل عن الهند بمضيق بحرى واسع فإن هونومان قد قفز في الهواء قفزة كبيرة حتى نزل إلى الجزيرة. وكانت سيتا قد قاومتها كل إغراءات رافانا الذى أعجب بجمالها وحاول أن ينالها. وإزاء رفضها ومقاومتها فقد سجنها في حديقة تحرسها حارسات مخيفات. ولكنها فضلت هذا السجن على الاستجابة له، وظلت مخلصة لزوجها راما رغم كل ما تعرضت له من ضغوط وتعذيب.

وقد تمكن هانومان من الوصول إليها، وأبلغها رسالة من راما، وحمل معه رسالة منها إلى راما تبثه فيها عواطفها الصادقة المخلصة. وقبل أن يغادر هانومان الجزيرة أراد أن ينتقم من شياطينها، وفي لمح البصر تحول هانومان إلى قرد كبير عملاق حيث كان قد دخل المدينة في هيئة قرد صغير حتى لا يلتفت إليه أحد، وبعد تحوله إلى قرد عملاق راح يحطم الأشجار ويقتلع الصخور ويقذف بها نوافذ القصر. وقد أسرعت الشياطين فأحاطت به من كل جانب. ونظر حوله فإذا هو وحيد وهم كثيرون؛ فخطرت له فكرة؛ حيث اقتلع من بهو القصر عموداً كبيراً من الرخام قفز به وسط جموع الشيطاطين ففرق شملهم. ثم قفز فترة هائلة في الهواء لكي يعبر المياه نحو الهند، إلا أن سهما أرسله أحد شياطين الجن أصابه، ورغم أن الإصابة لم تقتله إلا أنه سقط ؛ فجذب الشياطين . وأوثقوه بالحبال، وقادوه، إلى رافانا الذى كان ثائراً يرغى وزبد ويهتز مثل الزلزال. وأصدر رافانا أمره بحرق هانمان في الحال . وأحاط الشياطين جسمه بلفائف القطن، ثم أشعلوا النار فيها، وبدأ تتسرب ببطء إلى جسده.

لكن السماء تدخلت في اللحظة المناسبة لإنقاذ هذا القرد المخلص؛ فتجمعت السحب، وأمطرت مطرا غزيرا أخمدت النيران، وتيسرت سبل الهرب أمام القرد هانومان بعد أن أحرقت النار وثاقه وفكت قيوده. وأقلعت السماء فجأة، وكان ذيل هانومان لا يزال به بعض النيران، فقرر إحراق القصر، خاصة أن الأميرة سيتا كانت في مكان بعيد عنه. ونهض لفوره وراح يقفز

هنا وهناك، يدور بذيله فى كل اتجاه ليشعل النيران ، ولم تمض لحظات حتى احترق القصر كله.

وفى نشوة كبيرة قفز هنومان قفزة هائلة مكنته من العودة إلى شاطئ الهند، ثم ذهب إلى الجبل؛ حيث أخبر راما بالخبر، الذى أسرع بدوره إلى الملك سوجريفا لكى يمده بقوات جيش القردة . فأمده بأكبر جيش شهدته الأرض.

وذهب راما ولاكشمان وهانومان على رأس الجيش حتى وصلوا إلى الشاطئ فى مواجهة جزيرة الشياطين.

ولما شاهدتهم الشياطين ملأهم الرعب، وجمع رافانا مستشاريه لبحث الأمر، ونهض شقيق رافانا الأصغر، واسمه فبهيشان، يطالب بتنحية أخيه، وتسليم سيتا إلى زوجها؛ ليحل السلام محل الحرب.

وثار رافانا لموقف أخيه الأصغر وكاد يفتك به لولا أنه هرب، وأقسم على الانتقام منه. وقفز إلى الشاطئ الذى يقف عليه راما وجيشه، فأخبره بقصته، وعرض عليه المساعدة. وظن راما فى بادئ الأمر أنه جاسوس لولا أنه اقترح عليه إقامة قنطرة من الأشجار والصخور تعبر عليها قوات الجيش إلى البحر إلى جزيرة الشياطين. واقتنع راما بالفكرة ، وتم تنفيذها ، وعبر الجيش فى جنح الظلام، ودخل فى معركة عنيفة مع الشياطين، انتهت بهزيمتهم ؛ حيث استخدم جيش راما سهامه المسحورة التى أودت بالشياطين.

وقد أراد رافانا الانتقام من راما، فعزم على مبارزته، ودخل الاثنان فى نزال عنيف ، حتى كاد راما أن يسقط لولا أن جمع قوته كلها فى رمية واحدة بسهم مسحور من قوسه؛ فأخذ السهم طريقه سريعاً إلى قلب رافانا فقتله . وجعلت نشوة النصر راما يسترد قوته، وانطلق مع هانومان نحو المكان المحبوسة فيه زوجته؛ حيث تعانقا طويلاً .

وكان فبهيشان الشيطان الحليف لراما واقفاً على رأس قومه الساجدين يطلبون الصفح والغفران. وأصدر راما أوامره بالصفح عمن بقى من الشياطين، بشرط أن يحكمهم فبهيشان

ويمنعهم من الخروج من المكان الذى يعيشون فيه إلى أماكن أخرى . ولا يزال الهندوس يحتفلون بعيد انتصار راما على رافانا ملك الشياطين.

ورجع المنتصرون إلى الوطن، وكانت أنباء الانتصار قد سبقتهم إلى هناك بواسطة هانومان. فخرجت أيودها كلها وعلى رأسها بهارات شقيق راما الذى رفض طيلة الأربع عشرة سنة الماضية أن يجلس على العرش الذى يستحقه راما، وظل محتفظاً لراما بالعرش الذى يستحقه راما، وظل محتفظاً لراما بالعرش، واضعاً فوقه صندل راما. وعند حضوره وضع تاج الملك بنفسه على رأس رما، بل وألبسه صندله فى قدميه.

وقد عادت سيتا معه بعد أن أثبتت عفتها وإخلاصها لزوجها، وأن رافانا لم يتمكن من نيلها طوال مدة الأسر، وذلك بتحكيم النار المقدسة؛ حيث اشتعلت نار هائله، وخطت سيتا مرفوعة الرأس داخلها، حتى اختفت وسط الحطب المشتعل، ثم خرجت منها دون أن تمسها النار بسوء كعلامة على طهارتها وعفتها ؛ إذ حفظها إله النار لأنها لم تدنس شرف راما أبدا. ولكن رغم ذلك لم تسكت ألسن أهل المملكة عن كون سيتا عاشت فى قصر رافانا، وأنه ليس من المستبعد أن يكون قد نالها. وتحت ضغط الشعب ابتعدت سيتا لكى تعيش حياة النسك والتبعد فى منسك فالميكى (الذى اعتبر مؤرخا وقديساً شهيراً). وهناك ولدت توأماً هما لافا وكوسا، اللذين تعهدهما فالميكى بالرعاية والتوجيه.

وفى يوم ما أقام راما احتفالاً دينياً عظيماً حضره ملوك وأمراء بلدان الهند. وحضر القديس فالميكى هذا الاحتفال، ومعه لافا وكوسا، وقد قام الاثنان بإنشاد ملحمة الرامايانا التى تروى أعمال راما. وكانت الملحمة تتكون من ٢٤٠٠٠ بيت من الشعر ، واستغرق إنشادها خمسة وعشرين يوماً، وكان قد تعلماها من القديس المؤرخ فالميكى. وهنا عرف راما ولديه، وهفا قلبه إلى أمهما سيتا التى لم ينسها أبدا رغم البعد وطلب من فالميكى إحضارها لكى تثبت براءتها مجدداً بالمرور فى النار المقدسة أمام أهل المملكة؛ حتى يمكنها أن تعيش بجواره بعد رضا أهل المملكة. وعندما عاد فالميكى إليها، كان قد فاض بها الحزن من جراء ما تعرضت له من شكوك ، وابتهلت إلى الأرض الأم حتى تستعيدها مرة أخرى، فاستجابت

الأرض الأم توسلاتها، وانشقت حتى ضمتها إلى كنفها . وقد صارت سيتا إلهة مقدسة عند الهندوس كمثال لوفاء الزوجة وإخلاصها وطهرها وتضحيتها من أجل زوجها ، ويرسمون لها صورا تبدو فيها بعشرات الأيدى كرمز لقوة التحمل والعطاء.

وهكذا انتهت ملحمة الرامايانا المقدسة. وينبغى التأكيد مجدداً على أنها ليست مجرد قصة تُروى ، وإنما هى كتاب مقدس يستمد منه الهندوس عقائدهم وأفكارهم الدينية؛ فراما إليه يجسد الألوهية، وهو تجسيد للإله فيشنو، فهو التجسيد السابع له بين عشر تجسيدات أخرى سنذكرها عند الحديث عن الإله فيشنو. ولا يزال يقرأ الهندوس ملحمة الرامايانا كما يقرأ المسلمون القرآن، وكما يقرأ المسيحيون الأناجيل؛ تعبدا ورغبة فى الثواب الإلهى، غير أن الهندوس يعتقدون أن قراءتها تخلص القارئ من ذنوبه كلها ، وتجعله ينجب ولداً حتى ولو كان عقيماً. ومن الملاحظ أن الرامايانا ككتاب مقدس يحكى حياة راما وأعماله، ليس بدعا بين الكتب المقدسة من هذه الناحية؛ لأن التوراة تقص حياة موسى وأعماله، وأسفار أنبياء بنى إسرائيل تقص حياتهم وأعمالهم، كما أن الأناجيل الحالية ما هى إلا رواية لحياة المسيح على الأرض وأعماله.

- المهابهاراتا The Mahabharata :

يعتبر الهندوس " المهابهاراتا " كتاب مقدساً ؛ ولهذه القدسية التى تتمتع بها المهابهاراتا فإنهم يقسمون بها. وهذا الكتاب عبارة عن ملحمة تتكون من تسعين ألف بيت (٣٣) ، بينما تتكون الرامايانا من أربع وعشرين ألف بيت. ولذا فإنها تفوق فى عدد أبياتها الرامايانا والإلياذة والأوديسا. ويتكون كل شطر من البيت من ست عشرة كلمة هجائية كما هو المعروف فى الشعر السنسكريتى.

ويوجد خلاف حول زمن كتابة المهابهاراتا؛ فثمة رأى يقول إن تاريخها يرجع إلى نحو سنة ٥٠٠ ق. م؛ وأنها أخذت صورتها الراهنة نحو سنة ٤٠٠ ب. م فى عهد ملوك جوبتا Gupta العظماء(٣٤) . بينما يرجح رأى آخر أنها كُتبت بين القرن الخامس ق. م . والقرن

الرابع بعد الميلاد (٣٥). ويذهب رأى ثالث إلى أنه من المحتمل أنها كُتبت فى القرنين الثالث والثانى قبل المسيح ولكنها قد عُدِّلت بقوة خلال الأجيال التالية (٣٦).

وتُنسب المهابهاراتا فى التقليد الهندوسى إلى الحكيم الأسطورى فياسا Vyasa (٣٧). وتقول الأسطورة إن الذى أملاها عليها هو الإله جانيش . لكن طبعاً وجهة نظر علم النقد التاريخى للكتب المقدسة تؤكد أنها من تأليف عدد من الشعراء والحماء اللاهوتيين الذين شاركوا فى صياغتها عبر أزمنة مختلفة.

وهى تعبر هن الحياة والعقيدة الهندوسية بعد تراجع نفوذ البوذية؛ لأن عقيدة الإله كرشنا قد سادت فى الحياة الدينية للهندوس بعد تلك الفترة البوذية (٣٨).

وتشتمل المهابهاراتا على جانب كبير من أصول وعقائد الديانة الهندوسية. ويمكن القول إن من بين ما يميزها عن الفيدا والأوبانيشاد أنها تقدم ما يسمى بطريق العبادة أو الخشوع أو البها كيتامارجا Bhakitmarga الذى يحقق الحب الذى يوحد بين الروح الإنسانى والبراهما، بينما الفيدا تقدم طريق الجهد والفعل والنشاط أو الكارما مارجا Karmamarga، أما الأوبانيشاد فإنها تقدم طريق التأمل والمعرفة أو الإينانامارجا Inanamarga الذى يعنى اكتشاف العقل للحقيقة بواسطة النقاش السرى حول ما وراء عالم الظواهر والأوهام .

وفضلاً عن هذا فإنها تقدم مع الرامايانا أمرا آخر يميز الهندوسية عن الفيدية والبراهمانية، وهو نظرية الأوتار التى تطرح معتقد التجسد الإلهى فى صورة بشرية؛ حيث تقول إن الإله تقمص شخصية إنسانية مثل كرشنا . وقد سبق أن صورت الرامايانا الهندوسية هذه العقيدة؛ حيث تقول إن الإله تقمص شخصية راما بطل الملحمة لهداية البشرية. وهذه مسألة تستدعى بطبيعة الحال المقاربة مع المسيحية الحالية التى تقول إن الله حل فى يسوع لخلاص البشرية، أو بمعنى آخر أن المسيح يشتمل على طبيعتين إلهية وبشرية وأنه اتخذ هذه الصورة فأصبح الابن لكى يعدل مسار التاريخ بتخليص الإنسانية من الخطيئة وفدائها بالصلب. والمسيح ليس فقط هو ابن الله، بل هو كذلك الآب والروح القدس (٣٩).

وبطبيعة الحال فإن الإسلام يقدم تصوراً منزهاً ومجرداً لله، ويرفض فكرة التجسد الإلهى فى صورة بشرية بشكل عام، ويلح على أن المسيح ما هو إلا بشر رسول بشكل خاص.

وتتضمن المهاربهاراتا كثيراً من الشرائع الاجتماعية الهندوسية، كما تحتوى على غايات الحياة الأربع ، وهى :

الاستقامة ، والثروة ، والمتعة الأرضية، والحرية الروحية.

بالإضافة إلى ذلك فإنها تذكر مراحل الحياة الأربع وهى : الطالب، ورب البيت، وساكن الغابة ، والزاهد المتجول. كما تشتمل على النظام الطبقى الرباعى.

وتطرح المهابهاراتا تعاليمها وتصوراتها من خلال ملحمة مقدسة تروى أن أسرة براهمانية تدعى "كورو" كانت تحكم دلهى وما يجاورها ، وان أخوين من هذه الأسرة هما " باندو" و "دهيراتاراشتار" ورثا الملك بالتوالى، حيث إن الأول أنجب خمسة ذكور. وبعد وفاته أخذ الثانى الحكم، وكان كفيفاً ، وأنجب مائة ذكر. وحكم المملكة حكما ساد فيه الخير، وكان يعطف على أولاد أخيه ويحبهم ويعتنى بهم وبأمهم فى قصره. وقد نشأت المشاحنات بين هؤلاء الخمسة أبناء باندو وبين أبناء دهيراتا راشترا المائة. وكان يتزعم الأولون أكبرهم يودشترا، ويتزعم الآخرون أكبرهم دور يودان.

وكان من التقاليد السائدة بين أمراء الهند كما تروى الملحمة أنهم إذا أرادوا تزويد أميرة من الأميرات يجرون مسابقة للسباق، بحيث أن الذى يحرز قصب السبق يكون هو الفائز بالزواج من الأميرة؛ حيث كانوا ينصبون فى حلبة السباق قصبة فمن سبق اقتلعها وأخذها ليظهر أنه السابق. وقد جرت مسابقة من هذا القبيل فى الملحمة؛ إذ أعلن ملك من الملوك المجاورين عن زواج ابنته الأمير درايوبادى فاشترك فهيا أحد الأبناء الخمسة ويدعى آرجونا وكان بطلاً شجاعاً، كما اشترك شخص آخر ليس من طبقة البراهمة يدعى كارنا وكان بدوره يتسم بالبطولة والشجاعة وكان حليفاً للأخوة المائة ولكن الأميرة رفضته لأنه ليس من طبقة البراهمة. وفاز آرجونا بالسباق الذى كان يشجعه ويباركه فيه كرشنا وهو الصورة البشرية التى تجسد فيها الإله فيشنو. وهكذا فاز آرجونا بالأميرة التى أصبحت زوجة له ولإخوته الأربعة،

لكن الأخ الأكبر يودشترا استأثر بها دونهم كزوجة، وتزوج كل منهم زوجة أخرى . وقد شعر أبناء عمهم الإخوة المائة بغيرة وسخط نتيجة فوز آرجونا بالسباق وفشل حليفهم كارنا.

وتروى الملحمة المقدسة أن أبناء باندو الخمسة قد حكموا بزعامة الأخ الأكبر المنطقة الشرقية لنهر الجانج (وهو نهر طوله ٢٤٩٦ كم ينبع من جبال الهمالايا بمقاطعة أوتار برادش، ويصب فى خليج بنغال. وهو أكثر الأنهار قداسة عند الهندوس ، وبخاصة مناطق الاستحمام فى الله آباد وبنارس). بينما حكم عمهم الكفيف أبو الأبناء المائة المنطقة الغربية.

وكان الأخ الأكبر يودا شترا هو واخوته الأربعة أكثر تقوى لله وأنفذ بصيرة من أبناء عمهم. ولكنه كان مولعاً بالقمار ، وهو غير محرم فى الديانة الهندوسية. وقد انتهر الأخوة المائة الحاقدون هذه الفرصة لكى ينتزعوا ملكة بمؤامرة استعانوا فيها بخبرات أحد ملوك منطقة هندية مجاورة وكان لا يضارع فى لعب القمار وأقيمت مباراة وخسر فيها يودشترا أمواله ثم مملكته ثم زوجته وأخوته وأخيراً خسر نفسه. فأصبح الجميع رقيقا لأبناء عمهم.

لكن العم الكفيف حال دون أن يصبحوا رقيقاً، وتحت إصرار أبنائه وافق على نفيهم لمدة اثنتى عشرة سنة فى الغابة، على أن لا يخرجوا منها طوال هذه الفترة، وعلى أن يعيشوا سنة أخرى بين الناس مختفين عن الأنظار. وإذا أخلوا بهذا فى أية وقت من المدة ، فإن عليهم أن يقضوا الفترة من جديد. ورغم كل هذه النوازل التى حلت بالأسرة، فإن أحدا لم يسخط على يوداشترا لا من الآلهة ولا من البشر. وكان موضوع السخط هو دوريودان الذى فاز .

وقد قضت الأسرة مدة نفيها فى الغابة، كرشنا، فى تعلم الحكمة، وكان يزورهم كبار الكهنة، بل زارهم الإله شيفا. وبعد الانتهار من فترة النفى، تنكروا لكى يقضوا سنة بين الناس دون أن يتعرف عليهم أحد، وذهبوا في هيئة غير هيئتهم إلى بلاط ملك من ملوك المقاطعات الهندية هو فيراتا، فتنكر يوداشترا فى هيئة كاهن، وتنكر آرجونا فى هيئة سيدة إمعاناً فى التنكر، كما تنكر باقى الأسرة فى هيئات أخرى، وعملت درايوبادى فى قصر الملك كخادمة. وفى تلك الأثناء قام دوريودن بقيادة حملات عسكرية ضد مملكة فيراتا واستطاع أن ينتصر ويعود غانماً بعد أن استولى على كثير من أموالها وأبقارها وسائر حيوانتها. وعقد الملك فيراتا

العزم على الثأر والقصاص، وعرض آرجونا نفسه بعد أن ظهر فى هيئته الرجولية وكشف عن قدراته – عرض نفسه لقيادة جيش القصاص. وبالفعل قاد الجيش فى معركة مظفرة ضد ابن عمه. كل ذلك دون أن يكتشف أحد أنه آرجونا وبعد مرور سنة التخفى عادت الأسرة لكلا تطالب بملكها ، فرفض دوريودان، رغم نصيحة أبيه الملك الكفيف ونصيحة كبار الكهنة والساسة ونصيحة كرشنا؛ تجنبا لقيام حرب. وكانت الأسرة المنفية قد كسبت لجانبها طوال مدة النفى الكثيرين ممن يعطفون عليها فى شمال الهند بأسرها، فضلاً عن تحالف الملك فيراتا معهم.

ونشبت حرب استرداد الملك، وكان آرجونا متردداً فى المشاركة فى الحرب هل يتقدم للقتال أم لا ؛ لأن أعز أصدقائه وأقاربه فى صف عدوه. ولكن كرشنا يجادله، وقد كشف عن شخصيته ، وهو أنه تجسيد للإله فيشنو ، ويلقنه تعاليمه الإلهية، وما هذه المحاورة وما فيها من تعاليم إلا البهاجافا – جيتا (التى سنخصص لها فقرة مستقلة لأهميتها القصوى فى الكشف عن العقيدة الهندوسية) .

وكانت المعركة عنيفة ؛ حيث خسر الطرفان خسارة فادحة، وسقط الكثيرون من الجانبين؛ حتى أنه لم يبق من الأبطال فى جيش دوريودان إلا كارنا الند القوى الشجاع لآرجونا، وهو بدوره سقط قتيلاً فى نهاية المعركة. وفى اليوم الأخير للمعركة كانت المواجهة الحاسمة التى سقط فيها جوريودان وما تبقى من إخوته وأعوانه.

وبعد الانتصار اعتلى يودشترا عرش الملك، وجعل مملكته تسير على مجموعة من القوانين المستقاة من تعاليم كرشنا الواردة فى البهاجافاد – جيتا، والتى تتضمن انتقالا حقيقيا من تعاليم الفيدية والبراهمانية إلى الهندوسية. ولما كانت هذه الحرب قد أسفرت عن مصائب كثيرة فى الأموال والنفوس؛ فقد أراد يودشترا التكفير عما حدث بأضحية الحصان الشهيرة. فبعث حصاناً – أطلق عليه حصان السلام – إلى المناطق المجاورة، على أن يقدمه قربانا للآلهة بعد عودته. وكان هذا الحصان تحت حراسة آرجونا لكى يحميه من كل من أراده بسوء وكل من لا يعترف برسالته. وفى هذه الجولة حارب آرجونا كثيرا من ملوك المناطق

الرافضة لرسالته، وضم ملكهم إلى ملك أخيه، بينما أعلن السلام لكل من تقبله وأقر برسالته. وعند العودة تم تقديم الحصان كقربان للآلهة تكفيرا عما حدث من أخطاء، وكان الملك الكفيف أبو المائة قد ترك هو وزوجته وبعض رفاقه البلاد وذهبوا إلى الغابة حزناً على فقدان أبنائهم المائة. وبعد فترة قصيرة من الزمن ماتوا فى حريق أثارته نارهم المقدسة.

وبعد ستة وثلاثين عاما من المعركة الكبرى، هلك الأخوة المنتصرون وحليفهم كرشنا بصورة غريبة؛ حيث تقاتلوا مع بعضهم البعض مستعملين قصبات تحولت سحريا إلى دبابيس، وانهارت العاصمة ، وتلاشت فى المحيط. وكان يودشترا، وقد شعر بالشيخوخة، ترك الملك لابن أخيه آرجونا ويدعى باركسيت (الذى كان قد ولد ميتا وأعاد كرشنا له الحياة). وتوجه مع أشقائه وداريوبادى وكلب، نحو الهملايا. وسقط رفاقه الواحد بعد الآخر على الطريق. ولكن يودشترا وحده مع كلبه (الذى هو فى الحقيقة تقمص لروح والده دهيراتا راشترا) قاوما الموت حتى الرمق الأخير. وتنتهى الملحمة بوصف مختصر لنزول يودشترا إلى الجحيم، ثم صعوده إلى السماء بجوار الآلهة(٤٠).

تلك كانت القصة الرئيسية للملحمة العظمى مهابهاراتا ، ولكن تتضمن هذه الملحمة قصصاً أخرى فرعية ذات دلالة دينية، ربما يكون من المفيد إيراد نموذج منها حرفياً حتى يقف القارئ بشكل مباشر على طبيعة التفكير الهندوسي والأسلوب الذى ينتهجه فى التعبير عن عقائده الدينية. تقول الأسطورة :

" كان هناك ملك فى الهند يدعى اسواباتى ، أحبه شعبه ، لأنه كان يساعد كل محتاج ويخدم الآلهة بالصلاة والأضاحى .

ولكن الملك لم يكن له طفل يحمل اسمه ويخلده من بعده، فكان قلبه حزيناً جداً. لذلك كان يصوم كثيرا، ويسبح بالتراتيل للآلهة المشرقة، آملا أن يحققوا له رغبته الوحيدة. وسمعت دعواته بعد ست عشرة سنة. فرأى فى نار المذبح الحمراء امرأة، هى الجمال فى الوجه والخلق، وقالت :

– إن إخلاصك قد سرنى . اذكر رغبتك وستجاب .

فأجاب الملك :

– إن رغبتى هو أن أرزق بطفل يعيش من بعدى .

فقالت :

– إن الآلهة ستحقق لك رغبتك .

ثم رحلت ورأى الملك اللهب الأحمر فقط .

وولد الطفل .. بنتا ذات عينين وضائتين ، مثل زهرتى لوتس .. التى أصبحت فخر أمها وأبيها .

وفى نهاية الأمر ، كبرت وصارت فتاة جميلة جمالاً أخاذا حتى أن أباها تأكد من مجئ ملوك آخرين طالبين يدها من قريب وبعيد. ولكن لم يأتى أحد لهذه الفتاة ذات العينين الوضائتين كما لو كانتا زهرتى اللوتس، فاضت عليهما روح أسمى من أن تكون حتى لملك، ولكن الجد الذى التزمته فى سلوكها والحكمة التى تشيع فى حديثها صرفت عنها الرجال إذ أحسوا إزاءها برهبة وإجلال .

وفى أحد الأيام، ركعت هذه الفتاة حلوة الشمائل، سافترى ... وهذا هو اسمها .. فى مذبح آجنى، إله اللهب الأحمر. وسألت الإله بركاته ووضعت أمامه قرابين من كعك وشراب ثم جمعت حزمة من الزهور لتأخذها لوالدها . فنظر إليها اسواباتى بعيينين عطوفتين وقال :

– بنيتى ، حان وقت زواجك كما هو العرف لجميع الفتيات ذوات المحتد الكريم. ويجب ألا نضيع الوقت، فالناس قد يظنون أنها غلطتى لعدم اختيار زوج لك. وبما أنه لم يأتى أحد ليطلب يدك؛ فإنى أقترح عليك أن تسافرى وتختارى واحدا لنفسك.

وهكذا بدأت سافترى البحث . وسافرت فى حاشية فخمة يصحبها النبلاء والحكماء من الرجال ومر الموكب الملكى عبر غابات وأحراش وفى شوارع مدن عظيمة، ورحلت حتى عبرت قرى صغيرة فى التلال وحيثما كانت سافترى تذهب، كانت تعطى الصدقات للفقراء ، وتحيى العظيم والبسيط، والناس كلهم باركوا لها .

وفى يوم عادت أخيرا. وحياها الملك من على عرشه. وكان يجلس بجانبه نادار الرجل الحكيم.

فقالت الأميرة :

– لقد عثرت على زوجى، إنه الأمير ساتيافان. ورغم أنه لا يعيش فى قصر؛ فهو نبيل من دم ملكى.

وسأل الملك :

– أى البلاد يحكم ؟

فأجابت

– ليس لديه مملكة ، ولكن يعيش فى كوخ فى الغابة مع أبيه وأمه. وحظهم ليس بالحظ السعيد. فالرجل العجوز أعمى. ولقد عاش هو وملكته ف الغابة منذ أن كانت ابنهما طفلا صغيراً . فمنذ سنين عديدة طرده أعداؤه من عرشه الشرعى واغتصبوا بلاده .

آه ، ولكن أميرى نبيل مثل اسمه، فعند مولده سماه البراهمة ساتيافان أو المحب الصادق إنه يتمتع بصفات الرجل الحق. بشوش الوجه، فارس ممتاز، ويستطيع أن يرسم صورا للجياد تسر الناظرين.

فسأل الملك نادار الرجل الحكيم :

– ما رأيك ؟

فأجاب نادار :

– لقد أسأت الاختيار . الملك العجوز هو رجل عادل فى الحقيقة، والأمير ساتيافان شاب نبيل . ولكنى أرى قدراً مظلماً ينتظرهما، لأن الآلهة المشرقة قد كشفت لى عن أنالأمير سيموت بعد سنة من اليوم بالتمام .

– هل سمعت هذا يا بنيتى ؟ أسألك أن تختارى آخر . فمن الحمق أن تسيرى فى زواجك ، طالما أن ياما ، إله الموت ، سيأتى بعد سنة ويطالب بزوجك ويأخذه.

– لا أستطيع أن أختار غيره، يا أبى العزيز. إن قلبى يخص ساتيافان وحده.

وسوء أخذه الموت منى أم لا ، فسأتزوجه هو فقط .

– فلتفعلى ما تريدين، يا بنيتى . ولكنها رغبة غريبة هذه التى تبدينها ، تطلبين أن تعيشى فى الأدغال لمدة اثنى عشر شهراً، ثم تقضين سنواتك كلها بعد ذلك فى حداد .

وفى اليوم التالى دخل الملك وابنته الأدغال ، تصحبهما الحاشية ورجال الدين، ويحملون معهم ثروة عظيمة، ووجدوا الملك الأعمى العجوز جالساً على حصيرة من العشب تحت شجرة.

ويطلب من الملك الأعمى ، جلس اسوباتى وابنته على العشب . وقدم المضيف لضيوفه الكرام بعض الماء؛ لأنه كان فقيراً لا يملك أن يقدم لهم النبيذ. وما إن فرغوا من المجاملات حتى اتفق الملكان على الزواج، ولم يمر الكثير إلا والأميرة والأمير قد تزوجا . وهكذا أصبحت الفتاة الجميلة ملكة العش الصغير المقام بين أشجار الغابة الفسيحة. ومع انتهاء الزفاف قام الأهل والأصدقاء مع والدها بوداعها وسط دموع كثيرة.

وبعد رحيل والديها ، خلعت سافترى حليها ومجوهراتها البراقة وثوبها الجميل، وارتدت ثوبا بسيطا مصنوعاً من لحاء الشجر. وربطته حولها بحبل من قماش أصفر رخيص . فهى ستكون ملكة ليس بالمجوهرات أو الملابس ، ولكن بخدمة الملك العجوز الأعمى وزوجته ، وبحبها وطاعتها للأمير الذى هو من اختيارها.

وهكذا مرت سنة فى سعادة .

والآن يتبقى أربعة أيام قبل أن ينحدر شبح الموت إلى مملكة الغابة. ولثلاثة أيام منها صامت سافترى وظلت بدون نوم. وقلبها ينفر ألماً من الفزع مما قدر. ولكنها لم ترو قصتها لأحد، لا للملك الأعمى ولا الأمير النبيل الذى لا يعرف بالقضاء المبرم المتربص.

وفى صباح ذلك اليوم المحتوم ، نهض ساتيافان فى حالة نفسية سارة. وأخذ فأس الحطاب وابتسم لأميرته معلناً :

– سأمضى لقطع بعض الأخشاب ، وسأعود للبيت عند غروب الشمس.

وفطرت كلمات الأمير قلب سافترى ؛ فهى تعلم جيداً كيف يضع ياما المتشح بالعباءة السوداء يده على حبيبها ويأخذه منها .

فقالت :

– دعنى أذهب معك اليوم .

– لا ، فالأرض وعرة جداً على قدميك اللطيفتين، والطريق سيكون طويلاً، والرحلة ستكون مرهقة جداً .

فتوسلت قائلة :

– أرجوك .

ولم يستطع ساتيافات أن يرفض هذا الالتماس . ورحل الأمير والأميرة فى أعماق أدغال الغابة. وجاءا إلى مكان بعيد، حيث كان يوجد العديد من الأشجار العالية الصالحة للقطع وكثير من الفاكهة التى يمكن جمعها. ومرت ساعة الظهيرة وبدأ الغسق يزحف عبر الغابة العظيمة. وصوت الفأس يتردد صداه فى الغابة. والتقطت سافترى، والسلة فى يدها، التوت الناضج من الشجيرات . وكانت تتوقف من حين لآخر لتطمئن على زوجها .

وفجأة صرخ عالياً :

– آوه .. زوجتى !

فألقت سافترى بسلتها واندفعت بجانبه .

– رأسى ! رأسى ! ألم حاد يخترق دماغى . انظرى ، إن دمى ساخن الآن. أوه، لابد لى أن أستلقى .

فساعدته سافترى للوصول إلى شجرة . ووضعت رأسه فى حضنها تحت فروع الشجرة، وأخذت تهوى على وجهه. وأغلقت عيناه للحظات طويلة ، ثم سقطت ساكنا ، ثم بطؤ نبضه، وأخيرا سكت تماما .

لقد مر العام، وتطلعت سافترى مكلومة الفؤاد إلى أعلى لترى ظلا ضخماً فى شكل إنسان، كانت ملابسه سوداء ، وعيناه تبرقان مثل الضوء الأحمر، وكان يرتدى تاجاً غريباً فوق رأسه.

وسألت فى همس :

– هل أنت أحد الآلهة ؟

– أيتها الأميرة، أنا ياما إله الموت .

لقد أتيت اليوم من أجل زوجك الأمير .

وبعد هذه الكلمات رفع ياما يديه وألقى بحبل على جسد ساتيافان الساكن. وأمسك الحبل بحياة الأمير فى أنشوطته (= عقدة) وسحبها من جسده ، ثم استدار ياما نحو مملكته فى الجنوب

أصبحت الغابة ظلاماً، وكانت قوة ياما شديد، ولكن الأمير كانت شجاعة، فقامت وتبعت خطوات ياما، وبعد وقت قصير سمعها الإله الأسود، فالتفت قائلاً :

– ارجعى . لقد قطعت شوطاً كبيرا. ارجعى وابدئى تلك الطقوس الحزينة التى يقوم بها الندابون المتفجعون لإظهار حزنهم على الموتى.

– إنى أتبع زوجى . فهذا واجبى . ورجال الحكمة يقولون : إن تسر سبع خطوات مع آخر تقيم صداقة. لذا دعنى أسير أكثر من سبع خطوات معك. علاوة على أن رجال الحكمة يقولون : إن طريق الصلاح والاستقامة هو طريق الجميع، ولابد أنه طريقى .

– إن ولاءك وإخلاصك عظيمين . ومقابل ذلك سوف أمنحك رغبة واحدة، أى رغبة ، فيما عد روح الميت ساتيافان .

– إذن أعطنى هذه : دع عينى والد أميرى تريان ضوء النهار مرة أخرى، ودع قوته تصبح مثل قوة الشمس نفسها .

– سيحصل . والآن ارجعى . يجب أن ترجعى إلى بيتك فطريقى يؤدى فقط إلى المحتوم.

– سيكون حزيناً بالفعل طريقى للبيت بدون يد زوجى المرشدة؛ فلا توجد فاكهة على الأرض أحلى من صحبة هؤلاء الذين نحبهم .

فابتسم الإله الأسود ؛ لأن كلمات سافترى كانت طيبة وحكيمة ..

– سأعطيك رغبة واحدة ما عدا روح ساتيافان .

– إذن أطلب إعادة مملكة الملك العجوز لكى تعود له بلاده كما يعود له بصره .

– سيحصل كما قلت . والآن ارجعى؛ فالغابة فسيحة وبيتك بعيد.

– ياما، اسمعنى مرة أخرى . ما طيبة الرجل الطيب ؟ هل هى المنة والمعروف لكل الكائنات على الأرض، أو فى الهواء أو فى الماء ؟ إنها كذلك بالفعل. لذلك حتى لو طلب عدوك المساعدة ، امنحه تلك المساعدة لأنك بعملك ذلك تصبح طيباً .

– إن كلماتك ما هى إلا كلمات الحكمة أيتها الأميرة. ولهذه الكلمات الأخيرة أعدك برغبة أخرى أيضاً. ماذا ستكون ؟

– أوه ياما، أريد فقط أن أكون أما لأطفال نبلاء لكى أستطيع أن أعلمهم ليمشوا فى إثر أبيهم الغالى ساتيافان. ولذلك أعد أميرى .

ففك إله الموت أنشوطته ، وقال :

– يا امرأة ، إن زوجك سيتولى الحكم معك لسنوات عديدة، وسترزقين بأبناء يحكمون من بعدكما .

ثم طاف شبح ياما الأسود بعيدا داخلا ظلام الأدغال. وبخطوة سريعة ركضت سافترى، وطارت مقطوعة النفس. وبعد أن وصلت الشجرة التى يتمدد جسد ساتيافان بجوارها حتى ركعت .

وبعد أن وضعت رأسه فى حضنها ، انتظرت وراقبت، وأخيرا فتح الأمير عينيه، وقال :

– لابد أنى نمت أكثر من اللازم . غريب ، وأنا مستغرق فى النوم خيل لى أنى شاهدت شيئاً يشبه الشبح. لقد انقض وقبض حياتى فى أنشوطة سحرية ثم طرت إلى الظلام .

– كان هذا ياما إله الموت، لكنه رحل. انهض الآن ياساتيافان. إنه الظلام ولابد أن نعود للبيت .

– آه ، تذكرت الآن .. كان الألم الحاد يخترق عقلى .

– سوف نتحدث عن هذا غدا . لابد أن نذهب .

– إنه ظلام شديد. ولن نستطيع أن نعثر على الطريق.

– انظر، توجد نار مشتعلة فى الغابة من بعيد . ربما كانت من أثر شمس منتصف النهار المتوهجة. سنتوجه إليها. يمكنك استخدام الحطب المشتعل فى صنع شعلة لكى نطرد بها الوحوش الكاسرة أثناء سيرنا. ولكن إذا كان ألمك لا يزال موجوداً، فيمكننا أن نبقى هنا حتى تشفى.

لقد زال الألم، يا سافترى . إننى قوى مرة ثانية . إننى على صواب؛ فأبى وأمى سقلقان لغيابانا.

وأثناء حديثه عن والده الأعمى ، ملأت الدموع عينى الأمير، وقفز واقفا على قدميه، منظفاً ملابسه من أوراق الشجر الجافة .

– هات سلة الفواكه .

– سنأتى بها غدا ، ياساتيافان ؛ فلدينا ما يكفينا عمله للعثور على طريقنا فى الظلام. هيا، دعنى أحمل الفأس .

وحملت سافترى الفأس فى يدها اليسرى، ووضعت يدها اليمنى حول زوجها. وبهذه الطريقة رحلا عبر الأدغال، ولم يؤذهما لا دب ولا نمر .

وتحولت السماء إلى اللون الرمادى وقت وصولهما إلى الكوخ. وعندما اقتربا سمعا أصواتاً، وانطلقت صرخة عند ظهور الأمير والأميرة من بعد؛ إذ صاح الملك :

– أبنائى .

فصاح ساتيافان :

– أبى ، كيف أمكنك أن ترانى ؟

– لا أدرى كيف حلت هذه المعجزة ، ولكنى أعرف أنى أستطيع أن أراك، يا ولدى، وأنت يا سافترى يا أعز الناس .

والآن أستطيع أن أرى ابنتى المخلصة لأول مرة .

واحتضن الملك ابنه وزوجة ابنه ، وسأل :

– والآن أخبرانى أين كنتما الاثنين طوال الليل ؟

وبعد ما شرح ساتيافان سبب تأخرهما ، روت سافترى موضوع النبوءة الشريرة، ولقاءها مع ياما إله الموت. وما إن انتهت إلا وجاء خليط من الأصوات من الغابة واقتربت جمهرة من الناس، وصرخوا قائلين :

– خبر طيب، لقد خُلع الطاغية الذى استولى على عرش الملك السابق. عد إلى مملكتك أيها الحاكم العزيز . وبالرغم من أنك أعمى فإن أتباعك المخلصين يقفون بجانبك.

فأعلن الملك العجوز :

– ولكن الآلهة المشرقة قد أزالت غشاوة عينى . تعالوا ، هيا نعود إلى شعبى وبلادى التى ولدت فيها(٤١)".

– **البهاجافاد – جيتا Bhagavad Gita** :

هى أكبر جزء فى المهابهاراتا ، ويجلها الهندوس إجلالا كبيرا؛ حتى يعدونها من أكثر الكتابات قدسية (٤٢).

ونظراً لأهميتها فهى تُطبع ككتاب مستقل فى كثير من الأحيان. ومعنى البهاجافاد – جيتا هو أغنية للواحد المقدس، أو أنشودة المبارك، أو أنشودة الإله "The lord's Song " وربما يكون المعنى الأخير هو الأدق والأفضل .

وتمثل البهاجافاد – جيتا ذروة تطور العقيدة الهندوسية، وتمثل رؤية للحياة والألوهية مختلفة إلى حد كبير عن الأوبانيشاد والبراهمانا؛ حيث أن أسمى فضيلة يطالب بها الكتابان الأخيران هى أن تكون قديسا، بينما أسمى فضيلة تطالببها البهاجافاد – جيتا هى الحب والولاء حيث يكون الارتباط بشخص ما بعيداً عن أية منفعة. وإذا كان البراهمان يمثل فى

الأوبانيشاد تجريداً يفوق العقل الإنساني؛ فإن كرشنا يعلن فى البهادافاد – جيتا إن من الصعب الولاء لتجريد؛ فطريق الباطن يصعب على البشر أن يبلغوه ، والناس لا يمكن أن يحبوا تجريد أو كائناً لا شخصى. ولذا فإن البهاجافاد – جيتا تطرح الرغبة الإنسانية فى رؤية التجسيد الإنسانى للإله. ولا شك أن هذا الرأى يقرب بين الهندوسية والمسيحية الحالية، وبين كرشنا والمسيح كما يؤمنون به الآن.

ولقد كانت معرفة الإله التى يسعى إليها حكماء الغابة فى البراهمانية إجراء عقلياً مجرداً، ويتقارب مع هذا النوع من المعرفة ما ذهب إليه بندكت سبينوزا Benedict Spinoza الذى كانت روحه المفتونة بالإله تكاد تشبه إلى حد كبير روح حكماء الغابة؛ حيث كانت فى الواقع الحب العقلى للإله Amor Intellectualis، يقول سبينوزا : " إن كل سعادتنا تنحصر فى حب الله، وأن هذا الحب يتلو بالضرورة من معرفة الله، وهى أنفس ما لدى البشر [٤٣] ..". ووصف سبينوزا الحب الإلهي بأنه " حب عقلى لله " [٤٤] " ، ويقل : " لا يستطيع أحد أن يكره الله"[٤٥]، كما يقول : " من يحب الله لا يسعى إلى أن يبادله الله الحب[٤٦] ".

لكن معرفة الله فى البهاجافاد – جيتا هى أكثر من ذلك؛ إذ إنها حب ولائى Bakhti يقوم على الارتباط المقدس والإصرار على النزعة الروحية التى توجد بالمثل فى الزرادشتية وفى البوذية وفى المسيحية. وكان نفس الإصرار على النزعة الروحية والتطهير الداخلى يميز قمة التأمل الدينى الأخلاقى فى مصر القديمة.

والبهاجافاد – جيتا عبارة عن حوار دار بين آرجونا وكرشنا، عندما تردد الأول فى الدخول إلى ساحة القتال فى المعركة الفاصلة التى وقت بينهما . وكان سبب تردده هو وجود أقاربه وأصدقائه فى صف الأعداء ، ويخشى الوقوع فى خطيئة قتلهم. لكن كرشنا يرد عليه بأن الحكيم الحق يجب ألا يحزن لا على الأحياء ولا على الأموات؛ لأن الروح تنتقل من جسد إلى آخر، وهى لا تنفى بالقتل. وكل من هو موجود الآن وجد من قبل، وسيبقى موجوداً دائماً؛ فلا فناء للروح؛ لأنها أزلية أبدية؛ ومن ثم فإن الروح لا تموت. ثم إن المحارب المدافع عن الحق إن قُتل دخل الجنة ، وإن انتصر فالنتيجة هى مملكة يستحقها فعلاً. وهنا

نلاحظ تشابها بين الحجتين السابقتين للحث على القتال من أجل الحق فى البهادافاد - جيتا ، وبين الحجتين اللتين يطرحما القرآن. أما حجة القرآن الأولى فهى أن الذى يُقتل فى سبيل الله لا يموت ، بل هو حى عند ربه يرزق وينعم؛ يقول القرآن الكريم ﴿ وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ، فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ ، ١٧٠].

لكن ثمة خلاف فى طبيعة حياة الإنسان التالية بين بالهاجافاد - جيتا والقرآن حيث إن الأولى تؤكد على نظرية التناسخ، بينما القرآن ينكر هذه النظرية. والحجة الثانية التى يذكرها القرآن الكريم للحث على قتال الأعداء تتمثل فى قوله ﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ ﴾ [التوبة : ٥٢]، والحسنيان اللتان تنتظران المحارب هما : النصر، أو الجنة. وبطبيعة الحال إن التشابه الموجود بين حجتى البهاجافاد - جيتا وحجتى القرآن لا يعنى على الأطلاق وجود أى أثر وتأثر ؛ لأن التأثر يفترض أن محمداً عليه الصلاة والسلام كان يعرف السنسكريتية. وهذا ما لم يقل به أحد على الإطلاق .

نعود مرة أخرى لحوار كرشنا مع آرجونا ؛ حيث يحاول إقناعه من زاوية أخرى بالقتال، هى زاوية الواجب والانتماء الطبقى باعتباره أحد المحاربين الكشاترية الذين يجب عليهم الدفاع عن طبقتهم والقيام بمستلزمات الانتماء والولاء لها. فضلاً عن العار الذى سيلحق به إن لم يدخل المعركة؛ حيث سيسقط من الأنظار باعتباره جباناً متخاذلاً.

ثم يشرح كرشنا لآرجونا أسلوب الفهم الأفضل المستند إلى نبذ التمسك بحرفية نصوص الفيدا التى تمثل جوهر الديانة الفيدية، وتجنب الاقتداء بأولئك الذين يتبعون أهواءهم وشهواتهم ويؤدون طقوس الفيدا بهدف الوصول للجنة.

ويشجعه على الصول إلى حالة من اللامبالاة المقدسة تجاه النصر أو الهزيمة والارتياح أو المشقة والحب أو الكره، والخوف أو الأمل، والسراء أو الضراء. والإنسان الحكيم هو الذى يؤدى واجبه، وهو الذى يعرف الحقيقة كمثل البئر بالقياس إلى الأنهار . وهذا الإنسان هو

الذى يتحكم فى نفسه الأمارة؛ فلا يدعها تقوده حيث تريد من شهوات، ويعلو على الغضب والانفعال، وإن عمل عملاً صالحاً فهو لا يعمله إلا ابتغاء وجه الله؛ لأنه لا يرى إلا الله، ويعلم أن الله معه وفيه. وهو لا يعبد الله بطقوس خارجية فقط، لأن العبادة الحقة هى عبادة القلب. وكل هذا لا يتأتى إلا بالإرادة والرغبة اللذين يغنيان عن الفيدا التى لا تجعل المرء يركز فى شئ واحد. والمعرفة الحقة هى التى يصل إليها الإنسان عندما لا يرى إلا وجه الله فى كل شئ، فأينما يولّى فثم وجه الله؛ ومن ثم يشاهد الوحدة فى الكثرة، والكثرة فى الوحدة.

ثم ينتقل كرشنا لشرح مبدأ هندوسى بالغ الأهمية هو الكارما يوجا Karma Yoga؛ فالكارما هى القانون الذى يطبقه أدنى فعل لنا فى هذه الحياة؛ لأن ما يفعله الإنسان سوف ينال الجزاء الوافى عليه. وحياته فى العالم الراهن ليس إلا مجرد نتيجة لما فعله فى حياة سابقة ، وأفعاله فى هذه الحياة هى سبب شكل الحياة المستقبلية التى سيعيشها فى مرحلة تالية.

أما اليوجا فهى الطريقة التى بها يتحقق الاتحاد مع البراهمان الذى هو غاية الحياة. ويعظم كرشنا بصورة متكررة من قدر المشهد البطولى للجهد والعزيمة فى اليوجا فيقول: "حتى المحاولة الفاشلة لا تضيع سدى، كما أنها لا يمكن أن تؤتى نتيجة عكسية، بل إن أية ممارسة قليلة لهذه اليوجا ستنقذك من الدورة المخيفة للولادة الثانية والموت (٤٧) ".

وينصح كرشنا آرجونا بعدم المبالاة تجاه ثمار العمل؛ فيقول : "من حقك أن تعمل ولكن من أجل العمل وحده .. ليست ثمار العمل من حقك .. أدِّ كل عمل بقلبك متطلعا إلى الإله العلى. امتنع عن أى ارتباط بالثمار. كن هادئاً سواء فى نجاحك أو فى فشلك؛ لأن هذا الهدوء هو المعنى باليوجا". ومن الملاحظ أن مبدأ العمل من أجل العمل وحده دون وضع الفوائد فى الاعتبار يذكرنا بالفيلسوف الألمانى كنط Kant الذى يصور الفعل الأخلاقى على أنه ضرورى ضرورة موضوعية ، دون أدنى علاقة بأى شرط أو بأية غاية، وبوصفه خيرا فى ذاته. إنه لا يتناول مادة الفعل ولا النتائج المرتبطة به، بل يتناول فقط شكل الفعل والنية التى عنها صدر، أيا ما كانت النتيجة الفعلية أو المحتملة (٤٨) .

ثم يعلّم كرشنا آرجونا كيف أن "التفكير فى الأشياء المحسوسة سيربطك بالأشياء المحسوسة، أزدد ارتباطاً وستصبح مهتما بها، تخل عن اهتمامك يتحول إلى غضب، اغضب يتبلبل تفكيرك له ! بلبل فكرك تنس الدرس الذى وراء التجربة. انس التجربة تفقد الحكمة، افقد الحكمة تفقد الغرض الوحيد من الحياة". إن مَنْ هم منغمسون فى حياة الحواس يعتقدون بطبيعة الحال أنهم يتمتعون بأغنى تجربة تقدمها الحياة، وتبدو فى رأيهم عزلة الرائى كنوع من الحيرة، لكن الحقيقة عكس ذلك تماماً؛ " فالعقل الفطن يقظ فى معرفة الآتمان، الذى هو ليل حالك بالنسبة للجاهل، والجهلاء يقظون فى حياتهم الحسية التى يظنون أنها وضح النهار وهى ظلمة بالنسبة للرائى "[٤٩].

ويعتبر كرشنا أن التمييز بين المعرفة والعمل زائف ؛ لأن المعرفة نوع من العمل؛ فالعمل يتضمن العمليات العقلية. والإنسان لا يتوقف عن العمل لحظة حتى أثناء نومه؛ ولذا فإن " التحرر من العمل لا يتوقف عن العمل لحظة حتى أثناء نومه؛ ولذا فإن "التحرر من العمل لا يتحقق أبداً عن طريق الكف عن العمل"! وينتهى كرشنا بهذا الخصوص إلى أن السلبية ليست مطلوبة من المتعبد الحق، بل المطلوب منه هو العمل المنزه عن الأنانية

ويكشف كرشنا عن السبب الذى من أجله يضطر كإله للتجسد فى صورة بشرية " عندما يبدو فقط أن الشر قد صار له اليد الطولى، أجعل نفسى جسداً"، وهو يجعل نفسه جسداً لكى ينقذ البشرية من الشر؛ يقول : " إن مَنْ يعرف طبيعة عملى ومولدى المقدس أنى لا ألد ولادة ثانية؛ وعندما يترك هذا الجسد يأتى إلى، وهو فى هرب من الخوف، ومن اللذة ومن الغضب يختبئ فىّ، ملجؤه وأمنه، يحترق تطهرا فى لهيب وجودى، وفىَّ يجد الكثيرون الملاذ. وأيا كانت الرغبة التى يلتمسها الناس فى عبادتهم لى ، فإننى أحقق لهم تلك الرغبة ، وأيا كان طريق الناس الذين يرحلون؛ فهو طريقى : بغض النظر عن وجهة سيرهم فهو ينتهى إلىّ". ولا شك أن المقارنة هنا مع المسيحية تستدعى نفسها بقوة ؛ فكرشنا هو تجسد الإله فيشنو مثلما المسيح يع هو تجسد الله، وسبب التجسد فى الحالتين هو إنقاذ وخلاص البشرية. وإذا كان كرشنا . وكان كرشنا يقول لآرجونا : "ذاتى الخاصة تدعم الخلائق

وتساعدها دون أن تحيا فهيا؛ هى تجعلها تعيش"، فإنه يمكن أن نقارن قوله بمبحث القديس توما الأكوينى "الله فى كل الأشياء كسبب كينونة كل الأشياء". زد على ذلك أن فيشنو محبة: " أنا فى المخلوقات تلك المحبة التي ليست إلا الخير"، وكذلك فإن الله محبة فى المسيحية. واستمع إلى بعض عبارات كرشنا التى تذكرك بجوهر تعاليم المسيح فى الأناجيل الحالية : " سأهديك على طريق خلاصك.. أعدك حقاً لأنى أحبك . اكفر بكل شريعة ونظام والتجأ وإليّ وحدى كحصنك الوحيد. أنا سوف أعتقك من كل ضرر وشر، لا تفزع .. فالإنسان بعد أن يضحى خالدا صافى النفس لن يعرف الألم والعذاب ولن يرغب فى شئ وسأمنحه اسمى حبى ... وسوف يستطيع أن يتعرف إلى، بعبادة الحب، كما أنا فى عظمتى وفى جوهرى؛ وإذا عرفنى هكذا فلن يلبث حتى يأتى إليّ ..." .

وصرخ آرجونا بعد أن سمع هذا الوحى قائلاً : " الآن ولى الجهل والاضطراب الأدبار ! جاءنى النور بفضلك يا إلهى ! الآن أصبحت ثابت الجأش، وتبددت شكوكى، وتبعثرت ظنونى فى الهواء. على هدى كلماتك، يا إلهى ، سوف أسير .. أنا أنحنى وأجثو أمامك وأتوسل معمتك، يا سيدى المعبود خذ بيدى كأب بالنسبة لابنه، كصديق بالنسبة لصديقه ، وكحبيب بالنسبة لحبيبته".

إذن فالحب الإلهى يمثل جوهر تعاليم كرشنا مثلما يمثل جوهر تعاليم المسيح فى الأناجيل الحالية : فاللغة الوحيدة التى تجمع بين الله والإنسان هى الحب.

وهكذا نجد أن التشابه بين كرشنا والمسيح لا يقف فقط عند حد تجسد الإلهى فى الإنساني، بل يمتد إلى الغرض من هذا التجسد، وهو إنقاذ البشرية وخلاصها؛ فضلاً عن التأكيد على أن الله محبة، وأن الحب والعلاقة المثلى التى يمكن أن تقام بين الإنسان والله .

ويكشف كرشنا فى حواره مع آرجونا عن مسألة هامة تتعلق بذوى الإرادة الضعيفة الذين لا يتبعون أساليب اليوجا الدقيقة للوصول إلى البراهمانية أو الله؛ فهل مثل هؤلاء يفقدون حياتهم الدنيا من أجل الحياة الروحية فى المستقبل، بينما هم لا يستطيعون الدخول إلى تلك الحياة الروحية التى يريدونها؛ وبذلك يفقدون الحياة الدنيا والحياة الروحية ؟ وهكذا يتساءل

آرجونا .. ولكن كرشنا يطمئن آرجونا وكل مَنْ لا يتبع أساليب اليوجا الدقيقة وليس له إرادة قوية على تحمل مجهودها؛ "من أحد يسعى إلى البراهمان تحل به نهاية شريرة أبدا" (قارن هذا بقول سقراط فى محاورة الدفاع Apology لأفلاطون : لا يمكن أن يحل ضرر برجل صالح فى هذه الدنيا أو فى الآخرة(٥٠) . وقول القرآن الكريم ﴿ فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة : ٧، ٨] ألا ترى أن مفهوم القرآن عن الجزاء على الأفعال أدق فى التعبير عن العدالة الصارمة التى تأخذ الأمور بجدية مطلقة؟).. ويعلل كرشنا قوله السابق بأن مَنْ بدأ بممارسة اليوجا ولا يستطيع تحمل مجهودها سيصل مع ذلك إلى سماء الأفعال الصالحة؛ حيث يبقى فيها لفترة ، ثم بعد ولادته ولادة ثانية على يد ما يطلق عليه بيترى – جانا Pitri Jana (= طريق الآباء كمقابل لطريق اللامعين Deva - Jana الذين يصلون مباشرة إلى حالة النيرفانا Nirvana)، بعد هذا ينتقل إلى دار صلاح وتنور، وهنا سيجاهد من أجل الوصول إلى الكمال بدءا من النقطة التى كان وصل غليها قبل ذلك؛ ربما يكون سعيد الحظ فيولد فى عائلة يوجية متنورة ، وبعد النجاح فى تحقيق الأساليب الدقيقة للوصول إلى معرفة البراهمان سيمكنه الإفلات من دائرة الولادة المتجددة أو التناسخ. ويقدم كرشنا رؤية عالمية للعقيدة، يوجد تشابه بينها وبين ما حدث فى الديانة اليهودية مع أشعياء الثانى فقط؛ حيث يؤكد أن الإنسانية فى مختلف أرجاء العالم، تعبد آلهة متعددة ، بأساليب دينية متباينة. وهذا لا يهم كثيرا؛ فما دام للإنسان عقيدة، حتى لو كان شريرا ؛ فهم جديرا بأن يندرج فى عداد الورعين! وبفعل وصفه علم اللاهوت المسيحى فيما بعد بأنه "عمل فضل" سيجعل الله فى الوقت المناسب تلك العقيدة ثابتة برغم أنها فى غير موضعها، حتى أن "من ينعم بالإيمان الذى أمنحه له، يعبد تلك الديانة ويحصل منها على كل شئ يصلى من أجله . وفى الواقع، أنا وحدى المعطى(٥١)".

وفى إحدى النقاط المهمة فى الحوار بين آرجونا وكرشنا، يوضح الأخير كيف يمكن للإنسان المخلص لله أن يتكشف له الله لحظة الموت .

ويتخذ كرشنا مظهر الإله القادر على كل شئ، العظيم، الجبار، بعد تركه قيادة العربة الحربية لآرجونا، ويصبح كالشبح الذى جاء وصفه فى كتاب الرؤيا ليوحنا وهو الكتاب الأخير فى العهد الجديد. وكان له صوت مثل الصوت الذى كان يخاطب أيوب من الإعصار.

وفى ختام البهاجافاد – جيتا نجد كرشنا يدعو آرجونا إلى التعالى فوق فكرة الخوف من الموت، بل والتعالى علي كل مخاوف الحياة، والتخلص من كل أمل فى انتظار فوائد الأعمال، وأن لا يرتبط بأحد غير الله. وهنا يعقد آرجونا العزم على الدخول إلى ساحة المعركة التى وصفناها من قبل فى حديثنا عن المهابهاراتا.

- **قوانين مانو Manava - Dharma Sastra** :

عبارة عن مجموعة من القوانين والعقائد وطرق الخلاص. وتُنسب هذه القوانين لمانو الذى تصوره العقيدة الهندوسية كابن لله؛ حيث إنه يتلقى وحيا من براهما، هذا الوحى هو الذى دونه فى هذا الكتاب " Manava - Dharma Sastra" (Laws of Manu) .

وفى بعض نصوص الهندوسية يعتبر مانوا واحداً من آلهة ست انبثقت عن الإله الخالق براهما . بينما تذكر نصوص أخرى – وهى الأكثر شيوعاً – إنه الإنسان الأول الذى ظهر على الأرض، فأوحى الله إليه بهذه القوانين.

وطبعاً كل تلك الروايات السالفة روايات أسطورية . وعلماء الأديان يتفقون على أن هذا الكتاب من وضع مجموعة من البراهمة؛ ولذلك فهى تعبر عن مصالحهم ووجهة نظرهم. أما زمن تأليفه فثمة خلاف واسع؛ فهناك رأى يرجعه إلى القرن الثالث الميلادى(٥٢)، وهذا هو أضعف الآراء ؛ لأن بعض النصوص المكتوبة فى السابع قبل الميلاد تشير إليه بينما يرجعه آخرون إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد (٥٣) . والأرجح أنه كتب فى عصور متلاحقة تبدأ من عصر الفيدا، ثم أخذ رجال الدين البراهمة يضيفون عليه وينقحونه فى العصور التالية، حتى أخذ شكله النهائى فى القرن الثانى بعد ميلاد المسيح .

وينبغى التنويه مجدداً على أن هذا الكتاب لا يشتمل فقط على قوانين، وإنما كذلك على عقائد وعبادات وأساليب حياة. ويتكون من ٢٦٨٥ بيتا، تتوزع بين اثنى عشر فصلاً .

ويسمى كل فصل كتاباً. أما الكتاب الأول فيشتمل على عرض لقصة خلق براهما للكون والعالم والإنسان وتقسيمه للطبقات، ويشتمل الكتاب الثانى على مجموعة من الأدعية والصلوات والأخلاق، بينما الكتاب الثالث يبين نظم الزواج والأسرة ، أما الكتاب الرابع فيتضمن عرضا للنظم الاقتصادية وشئون العمل والمعاش، ويبين الكتاب الخامس أساليب الاستغفار والتكفير، والتقوى والطهارة وواجبات المرأة، ويتناول الكتاب السادس التصوف والزهد والتقشف، وينتقل الكتاب السابع نقلة بعيدة عن الكتاب السابق؛ حيث يعرض للنظم السياسية والعسكرية، ويقوم الكتاب الثامن ببيان قانون العقوبات والنظم القضائية والمدنية، ويكمل الكتاب التاسع قانون العقوبات والقوانين المدنية ثم يذكر واجبات طبقة التجار وطبقة الخدم والعبيد، أما الكتاب العاشر فيقسم طبقات المجتمع والنظم الخاصة بكل طبقة والتعليم الواجب اتباعها فى أوقات المجاعة. ويعود الكتاب الحادى عشر لأساليب الاستغفار والتكفير، أما الكتاب الأخير فيعرض لنظرية تناسخ الأرواح وتجولها وأسلوب الخلاص.

وتذهب قوانين مانو إلى أن أفعال الإنسان العقلية والجسدية وأقواله الكلامية هى التى تحدد مصيره التالى : " يحصل الإنسان على النتائج السيئة أو الحسنة للفعل العقلى فى عقله، ونتائج فعل الكلام فى كلامه، ونتائج الفعل الجسدى فى جسده، وكنتيجة للأفعال الخاطئة الكثيرة التى اقترفها الجسد، يصبح الإنسان (فى الولادة الثانية) شيئاً غير حى؛ وكنتيجة للأخطاء التى ارتكبها الإنسان بالكلام يصبح طيراً أو حيواناً ، وكنتيجة للأخطاء العقلية يولد الإنسان فى طبقة منحطة".

ومن الحكم البديعة مانو على الرؤية التقليدية للطبقات الأربع التى تحدثنا عنها من قبل ؛ مما يؤكد تعبيرها عن مصالح طبقة البراهمة .

وهى كغيرها من الكتب ذات القداسة تحث على مكارم الأخلاق، وتلح إلحاحاً شديداً على تحريم الزنا بصفة خاصة نظراً لعواقبه الوخيمة، تقل قوانين مانوا : "الذين يزنون مع

زوجات الآخرين.. على الملك أن يوقع بهم عقاباً شديداً وينفيهم . بالزنا تختلط الطبقات، وينتج الشر بسبب دمار كل شئ".

ويشير مانو إلى غايات الحياة الأربع، وهي : التقوى ، الثروة، التمتع، حرية الروح. والغاية الأولى أعلى من الغايتين الثانية والثالثة. وهذه الغايات الثلاثة هي غايات الإنسان في هذا العالم. لكن الغاية الرابعة، حرية الروح، هي هدف أولئك الذين يعتزلون العالم ويتنسكون وهذه أعلى غاية للإنسان. ومن المعلوم أن تحديد هذه الغايات والمفاضلة بينها ، يعد من سمات الهندوسية (٥٤) ، وتتحدد خلاصة نظرية الخلاص، كما تطرحها قوانين مانو، على النحو التالي حسب نص القوانين نفسه : "من يعرف المغزى الحقيقي للفيدا، مهما كان نوع نظامه، يصبح ملائماً لأن يتحد مع براهمان حتى ولو كان في هذا العالم".. " دراسة الفيدا، وممارسة الزهد، والحصول على المعرفة الحقة، وإخضاع الحواس، وعدم الإيذاء؛ هي أفضل الوسائل للوصول إلى الغبطة السامية أيوجد ما هو أفضل من هذه الأعمال للحصول على السعادة العليا ؟ معرفة النفس أفضل من كل الفضائل ؛ هي أولى العلوم ، وبها يُكسب الخلود" .. " من يضحي لأجل الروح، ويراها في كل الكائنات المخلوقة، ويرى كل الكائنات في الروح، يصبح مستقلاً كالملك المطلق" .. " من يعرف الروح من خلال الروح في كل الكائنات المخلوقة، يصبح بعقلية واحدة نحوها كلها، ويدخل الحالة العليا (براهمان). الإنسان المولود ثانية، من يتلو الكتب المقدسة التي ألهمها مانو، يكون فاضلاً في سلوكه، ويصل إلى الحالة التي يريدها".

-- البورانا Pouranas :

البورانا هي الموروثات القديمة التي تتضمن مجموعة من الأساطير التي قام "فياسا" ومجموعة أخرى تلته بتدوينها شعرا عبر مدة طويلة من ٥٠٠ ق.م إلى ٥٠٠م. وتبلغ ثمانمائة ألف بيت. وهي تقدم بأسلوب مبسط لأفهام الناس ما عجزوا عن فهمه في أسفار الفيدا والبراهمانا والأوبانيشاد؛ حيث تبين أصل العالم ومراحل الخلق ودورات الكون والفساد التي يتعرض لها العالم، كما تذكر قصص الآلهة وأنسابهم، وتكشف عن حقيقة العالم

والحياة، ونفى الثنائية عن الوجود؛ فالموجودات كلها لا تتمايز عن بعضها البعض، إنها تعبر عن حقيقة واحدة.

ومع أن البورانا لا تزعم لنفسها أنها كلمات إلهية مقدسة، فإنها صارت عند الهندوس إنجيلا ينضم إلى أناجيلهم الأخرى (٥٥) .

- السوترا أو الأقوال المأثورة Sutra :

كان علماء الهندوسية يضيفون عادة إلى الشروح الموحى بها فى البراهمانا والأوبانيشاد، مجموعات كثيرة لشروح أقصر من تلك، يصوغونها فى عبارات موجزة ويطلقون عليها اسم "سوترا" (ومعناها الحرفى خيوط) ، وأضافوا هذه الشروح إلى الفيدا ، فاكتسبت على مر الزمن احتراماً تقليدياً يجعلها من مصادر الدين، على الرغم من أنها ليست منزلة من السماء. وكثير من هذه الشروح موجز إلى حد يتعسر معه فهم معناه ، لكنها كانت تختصر العقيدة اختصاراً يسهل معه نقلها، أو أنها كانت وسيلة تعين الطلاب على حفظها فى عصر كانوا يعتمدون فيه على ذاكرتهم أكثر من اعتمادهم على الكتابة (٥٦) .

والأقوال المأثورة أوالسوترات التى تقبل سلطة الفيدا، هى التى أخرجتها المدارس الست: النايايا ، والفيشيشكا، والسانخيا، واليوجا ، والميمامسا، والفيدانتا. وكل مدرسة من هذه المدارس تظهر حقها فى المطالبة بما تذهب إليه من خلال الاتفاق مع التفسير الصحيح للتعاليم المقدسة. وثمة سوترات أو أقوال مأثورة تعتبر غير أصولية لأنها لا تعتبر الفيدا حقيقة نهائية، ولم تسع إلى تبرير آرائها من خلال إظهار اتساقها مع نصوص الفيدا وهذه السوترات غير الأصولية هى التى تنتمى إلى البوذية والجينية والكارفاكا (٥٧) .

ويعيد ماكس موللر التشكيل التدريجى للسوترا للفترة من بوذا إلى اسوكا (القرن الثالث قبل الميلاد) ، مع أنه يعترف أنه فى حالة الفيدانتا والسانخيا واليوجا قد وجد تطور سابق (٥٨) .

* **خاتمة**:

هكذا نجد أن الوحي الرئيسي في الفيدية والبرهمانية والهندوسية يختلف عن نمط الوحي الذي اعتدنا عليه في ديانات التقليد اليهودى – المسيحى– الإسلامى.

فالنمط الرئيسي من الوحي فيها، ليس على هيئة مرسل ومستقبل ووسيط، وإنما على شكل استقبال للحقيقة الأساسية للوجود بواسطة الحكماء.

لكن توجد بعض النصوص في البرهمانية تكشف عن وجود نمط آخر للوحي بالمعنى الموجود في التقليد الإبراهيمي: اليهودي، المسيحي، الإسلامي. فالوحي في بعض نصوص الأوبانيشاد: ليس استقبالا للحقيقة الكلية، ولكن الوحي فيها عبارة عن استقبال الرسول لرسالة سماوية من الإله عن طريق وسيط أو وسطاء. إذن هناك نمطان من الوحي في البراهمانية. أحدهما مختلف عن التقليد الإبراهيمي، وثانيهما مشابه له.

ومن الضروري الإشارة إلى أنه في إطار التقليد الهندي للوحي هناك أديان لا تلجأ إلى الوحي إطلاقاً كالبوذية التي تبدأ من نقطة قيام بشرية محضة، هي إلهام الحكيم بوذا. وتقدم بعض الأديان الأخرى في إطار مختلف تعاليمها كوحي سماوي، إلا أنها تنسب أمر تسليمها إلى مؤسس أسطوري أو خرافي كهرمس الذي تنسب إليه مجموعة التعاليم الدينية والفلسفية السرية(٥٩).

الهوامش :

١ – الشهرستاني، الملل والنحل، تحقيق محمد سيد كيلاني، القاهرة، مطبعة البابي الحلبي، ١٩٧٦م. ج ٢/ ص٢٥١ – ٢٥٢.

٢– انظر: بطرس البستاني، دائرة المعارف، بيروت، دار المعرفة، بدون تاريخ، المجلد الخامس، ص٣٧٦.

3 - Sir charles Eliot, Hindiusm and Buddhism, P. 51 .

4 - Ibid., P. 53 .

5 - Delongchamps, Liseleur Traduction du sanscrit des "loisde nanu "accompagness de notes explicatives et d'une notice sur les Vedas, P. 2.

مقتبس عن : د. على عبدالواحد وافى، الأسفار المقدسة فى الأديان السابقة للإسلام، القاهرة، دار نهضة مصر ، ١٩٨٤ ، ص ١٧٧ – ١٧٨ .

٦– فيلسيان شالى ، موجز تاريخ الأديان ، ص ٧٠ .

٧ – حبيب سعيد، أديان العالم ، القاهرة، دار التأليف والنشر للكنيسة الأسقفية، بدون تاريخ، ص ٧١.

٨– اقتبسه د. على الواحد وافى، الأسفار فى الأديان السابقة للإسلام، ص ١٧٦.

٩– انظر : توملين، فلاسفة الشرق، ترجمة عبدالحميد سليم، مراجعة على أدهم، القاهرة، دار المعارف ، ١٩٨٠، ص ١٧٣ – ١٧٤.

١٠– انظر كتابنا "العقل وما بعد الطبيعة"، القاهرة، مكتبة ابن اسينا ، ١٩٩٥، ص ٤٤–٩٥.

11 - Karl H. potter, Vedas in : Academic American Encyclopedia, Arete publishing Company, New Jersey, 1980, Vol. 19 P. 530.

١٢–انظر : سرفبالى رادا كرشنا ، وشارلز مور، الفكر الفلسفى الهندى، ص ٢٧.

١٣–المرجع السابق ، ص ٢٥ .

١٤– ذكر هذا الرأى ميرسيا إلياد ، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية ، جـ١، ص ٢٨٠ .

١٥– ذكره فيلسيان شالى ، موجز تاريخ الأديان ، ص ٧٤ .

١٦– انظر : جان فيليوزات ، فلسفات الهند ، ص ١١ .

١٧– مرسيا إلياد ، تاريخ المعتقدات والأفكار الدينية ، ص ٢٨١ – ٢٨٢ .

18 - M. Wintenitz, A Histrory of Indian Literature, P. 243 .

19 - Paul Deussen the philosophy of the Upanishads, P. 13 .

20 - Sir charles Eltiot, Hiuduism and Buddhism, P. 51 .

وقال بهذا الرأى كذلك : جون كولر ، الفكر الشرقى القديم ، ص ٤٤ .

٢١– قال بهذا : شالى ، موجز تاريخ الأديان ، ص ٧٤. ويرى جان فيليوزات أن فكرة ومحتوى الأوبانيشاد بشكلها الحالى تعود إلى الفترة الواقعة بين العام ألف والعام خمسمائة قبل المسيح . انظر: فلسفات الهند ، ص ١٣ .

22 - Max Muller, India What can it Teach uv ?, London, 1919. P. 254 .

٢٣- ول ديورانت، قصة الحضارة ، جـ ٣ ، ص ٤٣ .

٢٤- اقتبسه عن موللر : كرشنا ومور ، الفكر الفلسفي الهندى ، ص ٧١ .

٢٥- مثل جان فيليوزات في كتابه : فلسفات الهند ، ص ١٢ .

٢٦- النصوص المقتبسة من الأوبانيشاد - ما لم نشر إلى غير ذلك - واردة عند :

R.E. Hume, The Thirteen principal Upanishads.

- وانظر : كرشنا ؛ ومور ، الفكر الفلسفي الهندى .

- Paul Deussen , The philosophy of the Upanishads, 1960 .
- N. A. Nikam, Ten principal Upanishad: Some Fundmestal Ideas, 1974.
- R. D. Ranade, Aconstructive Survey of Upanishadic Philosophy, 1968 .

٢٧- انظر : جون كولر ، الفكر الشرقي القديم ، ص ٥٥ .

٢٨- المرجع السابق، ص ٥٧ .

٢٩- المرجع السابق ، ص ٥٩ - ٦٠ .

30 - Scott Fischer, (Ramayana), in : Academic American Encyclopedia, Vol., 16 , P. 80.

ويرى فيلسيان شالي أن تاريخ كتابة الرامايانا غير معروف وأن من المحتمل أنها بقدم المهابهاراتا موجز تاريخ الأديان ، ص ٨٠ - ٨١ .

بينما يرى روميش س . دوت Romesh C. Dutt أن الرامايانا ظهرت فى القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً، وتناقلتها الألسن من جيل إلى جيل حتى اتخذت الصورة الحالية فى القرن الخامس أو الرابع قبل الميلاد. انظر : كتابه حول الموضوع بعنوان .

The Ramayana and The Mahabharata, P. 169 .

ويسير على المنوال نفسه : د. محمد إسماعيل الندوى ، الرامايانا، مجلة تراث الإنسانية ، عدد أغسطس، ١٩٦٤ .

٣١- انظر : فيلسيان شالي ، موجز تاريخ الأديان ، ص ٨٤ .

٣٢- يوجد عرضان لهذه الملحمة باللغة العربية، العرض الأول قدمه : سليمان مظهر، أساطير من الشرق، القاهرة، مطابع الشعب، ١٩٥٨، ص ٨٩ وما بعدها . والثاني قدمه: أحمد عبدالمنصف محمود ، في بلاد البقرة المقدسة، ص ٤٧ وما بعدها.

33- Academic American Encyclopedia, Vol., 123, P. 64.

وتضم ترجمة المهابهارتا بالإنجليزية ثلاثة عشر مجلداً .

٣٤- توملين، فلاسفة الشرق، ص ١٩٢ .

35 - Academic .., Vol., 13. P. 64 .

٣٦- شالي ، موجز تاريخ الأديان، ص ٨٠ .

٣٧- يعنى اسم فياسا Vyasa حرفياً "جامع" أو "محور" .

38- R. C. Dutt, The Ramayana and Mahabharata, P. 324 .

٣٩- انظر: فصل الأديان المتعالية في كتاب المؤلف: تطور الأديان، القاهرة، مكتبة الشروق، ٢٠٠٩.

٤٠- راجع التحليل الأدبى للمهاراتا الذى قدمه د. محمد إسماعيل الندوى فى بحث بعنوان: المهابهاراتا، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٦.

٤١- ترجم هذه الأسطورة الفرعية: صبرى الفضل، فى : مختارات من الآداب الآسيوية، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٣، ص ٢٣ وما بعدها.

42 - J. C. Betts, (Bhagavad gita), in: Academic American Encyclopedia, Vol., 3, P. P. 223 – 4.

٤٣- عبارة واردة فى الرسالة رقم ٢١ من رسائل سبينوزا، انظر : د. فؤاد زكريا، سبينوزا ، ص ١٦٤ .

٤٤- المرجع السابق ، ص ١٦٥.

٤٥- المرجع السابق ، ص ١٦٦.

٤٦- المرجع السابق، الموضع نفسه.

٤٧- توملين ، فلاسفة الشرق، ص ١٩٦ .

٤٨- انظر: د. عبدالرحمن بدوى، الأخلاق عند كنت، الكويت، وكالة المطبوعات، ١٩٧٩، ص ٦٩.

٤٩- توملين، فلاسفة الشرق، ص ١٩٧.

٥٠- المرجع السابق، ص ١٩٨ .

٥١- المرجع السابق، ص ١٩٩ .

٥٢- قام د. على عبدالواحد وافى بإرجاع زمن مانو إلى القرن الثالث الميلادى. انظر كتابه : الأسفار المقدسة، ص ١٨٠.

53-Academic American Encyclopedia, Vol., 10, P. 131.

54-Ibid., Vol., 10, P. 160.

٥٥- ول ديورانت، قصة الحضارة ، ج ٣ ، ص ٢١٠ .

٥٦- المصدر السابق، ج ٣، ص ٣٩.

٥٧- جون كولر ، الفكر الشرقي القديم، ص ٤٠ .

٥٨- كرشنا، ومور، الفكر الفلسفى الهندى، ص ٤٤٤ .

٥٩ - الأب كزافييه ليون دوفور اليسوعى، معجم اللاهوت الكتابي، ترجمه إلى العربية مجموعة من علماء اللاهوت بإشراف المطران أنطونيوس نجيب، بيروت، دار المشرق، ١٩٨٨، ص ٨٤٠.